ديـجـة

(رواية مستوحاة من قصة حقيقيَّة)

اسم الكتاب: ديجة

التأليف: وائل بن عبد العزيز

نوع العمل: رواية

إخراج فني: سالم عبد المعز سواح

رقم الإيداع: 2022 / 10494

الترقيم الدولي: 978-977-835-303-7

الناشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر

Facebook

Email za7ma-kotab@gmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

ديجة

(رواية مستوحاة من قصة حقيقيَّة)

تأليف

وائل بن عبد العزيز

٢٠٢٢

إهداء

لكل أم أحضتنت أبنائها

لكل أب لم يتخلى عن دورهِ

لكل صديق كان وفي

ولكل زوج احترم وقدر زوجتهِ

وأخيراً

لكل إنسان حافظ على إنسانيته

شكراً

لبطلة الرواية التي عاشت مراهقتها وحبت ومن ثمّ تألمت وأخطاءت وقاومت ومِن ثمّ تابت وبحثت عن ذاتها كإنسانة، حالها حال الكثير من البشر بل أكثر، لم ترضخ لقهر الظروف ولا لظلم قرارات العِباد وظلت تركض خلف تحقيق أهدافها وأحلامها.

(وما زالت كذلك إلى تاريخنا هذا)

شكر خاص

لكل من قرأ لي حرف أو كلمة ولم يتردد

بإبداء إعجابه أو نقدهِ البناء مما خطه قلمي..

فراسلني ليصحح لي ما قد غفَ عنهُ فِكري

(١)

في بهو أحد منازل الطبقة الراقية، وقف شابٌّ أسمر أمام والده غارقًا في خجله، زائغ النظرات، وبينهما سيدة ذات قسمات حادَّة، تقطر من نبراتها الصرامة وهي تقول:

- أعتقد يا سيد «عابد» أنك أهملت في تربية ابنك، لدرجة أنه يدخل بيوت الناس من الأبواب الخلفيَّة!

تلعثم الرجل وهو ينظر إلى ولده بغضب.

فأكملت السيدة حديثها:

- المنزل بهِ بنت شابة، وحضرته كان يحاول أن يصل إليها من الباب الخلفي، والخدم أبلغوني.

مرَّت دقائق طويلة استجمع فيها «عابد» زمام نفسهِ المبعثرة خجلًا وغضب وهو يجيب:

- سيدة «وهيبة»، نحن على علمٍ بمَن تكونين...

ثم صمت ثانيتين وأردف وهو يضغط أكثر على حروف كلماته:

- وعلى علمٍ أيضًا بحقيقة البنت ومَن تكون.

صاحت فيه «وهيبة»:

- كل ما عليك أن تعيه جيدًا أن «دينا» ربيبتي وفي حكم ابنتي، ودخول «أحمد» بيتي تعدٍّ سافر على عِرضي حتى وإن لم تجمعني بـ«دينا» صلة رحم؛ فما بيننا أقوى من اختلاط الدماء.

نظر الرجل إلى ولده بحزم وسأله:

- «أحمد»، أمس تحدثت معكَ بموضوع «دينا»، واليوم أريد أن أسألك سؤالًا وتجيبني عنه بكلمة واحدة.. تريدها أن تكون زوجتك أم لا؟

على بُعد أمتار كانت تقف «دينا»..

ارتجَّ قلبها وانزوت، كأنَّما تريد أن تختفي وقلبها معلَّق بعينيها، وعيناها ترنوان برجاء إلى «أحمد» وتردد في نفسها:

- «أحمد»، أرجوك لا تخجلني.. أرجوك أن تقولها.

تمر الثواني ثقيلةً كأنها سنوات والصمت يكاد يقتُلها.

«أحمد» يتصبَّب عرقًا، يرفع رأسه ليجيب أباه:

- العفو منك يا أبي، ما عدتُ أريدها.

الأب:

- لم أسمع جوابك، تريدها أم لا؟

«أحمد»:

- لا يا أبي.

أُسقِط مِن عين «دينا» وركضت إلى غرفتها باكية.

كان جواب «أحمد» صفعة قوية أفاقت عليها من حلم جميل..

تذكرت أول لقاء بينهما..

حين كانت تسير في أحد المراكز التجاريَّة واصطدمت بشابٍّ أسمرَ واسع العينين طويل القامة..

وكيف وقف أمامها باسمًا رافضًا أن يزيح عينيه عن عينيها..

وكيف انصرفت من أمامه متصنِّعة الضيق، بينما في داخلها سَرَت رعدةٌ خفيفةٌ لا تدري ما سببها، أهو عطره الأخَّاذ أم وسامته الراقية!

لم تلتفت إلى مظاهر الثراء البادية عليه؛ لأنها نشأت في مستوى لا يقل ثراءً عنه..

فلم تبهرها سيارته الرائعة التي قضى أيامًا يسير خلفها بها كلما خرجت إلى مدرستها بصحبة السائق الخاص..

ولا عطوره فرنسيَّة الصنع التي يكفي مجرد مروره لتعطير حيٍّ بأكمله..

ما جعلها تتعلَّق به حقًّا: نظرات عينيه التي كانت تشع حبًّا وغرامًا..

ملاحقته إياها التي استمرت شهورًا دون كلل أو ملل..

فتاة صغيرة في السادسة عشرة من عمرها، لا بُدَّ من أن تشعر بالسعادة حين يطاردها شاب كهذا.. شاب يداعب مراهقتها.. ويُشعِرُها بأنها مرغوبة..

«أحمد» يصلح فتى أحلامٍ جيدًا في قصص المراهقات..

شاب حسن المظهر، لطيف في غزلهِ، ذو شخصيَّة جذَّابة، ترتسم على مظاهره ملامح الثراء الوافر..

تذكَّرَتْ يوم بدأت القصة..

يوم صحت من نومها، كدأبها، تتأمَّل تقاسيم وجهها وجسدها الريَّان مثل كل صباح، وهي تنظر في المرآة التي ينعكس عليها جزء ضئيل من أشعة الشمس المتسلِّلة من خصاص النافذة، ما جعلها تشعر بالدفء والحيويَّة، وترى نور الصباح يضيء منعكسًا على ملامحها البشوشة الجميلة، التي لطالما أثارت أصوات المعجبين مِن حولها، وهم يقدمون أبيات الغزل في عينها التي كعين المها في اتساعها وجمالها، والتي تتميز بحورِها، كما أن رسمة أهدابها ورموشها وحدَّة حاجيها زادت من فتنة عينيها وحُسنهما، كذلك كان لطول شعرها المموَّج أسود اللون ودقة شفتيها نصيبٌ من أبيات الغزل، غير أن لون بشرتها كان يزعجها على الرغم من ذلك؛ لذلك كانت تنتظر دائمًا اقتراب فصل الصيف لكي تسافر، وتلقي بجسدها اللافت على شواطئ مدينة «كان» الفرنسيَّة، لتحصل على أكبر قدر من حمام الشمس، وتتعرَّض لأشعتها لتسمر بشرتها ويكتسب قوامها الفاتن لونًا برونزيًّا مثيرًا.

حين خرجت تتريَّض رياضة المشي، في الحي لأول مرة دون حراسة السائق، تبعها هو، حتى عادت إلى البيت خوفًا من تهوره..

وما إن دخلت البيت حتى دقَّ هاتف المنزل لترفع سمَّاعة الهاتف مجيبةً برقَّة:

- ألو.

جاءها صوتٌ محملٌ بالسحر:

- أخيرًا سمعت صوتك؟! أتوسل أليكِ أن لا تقفلي الخط، عذبتِ قلبي شهورًا وراءكِ.

ارتعدت «دينا»، لكنها رعدة سعادة..

كلما استغرقت في ذكريات سعيدة صفعتها كلمات والده:

- هل تريد حقًّا أن تتزوَّج بفتاة متبنَّاة لا أصل لها؟!

كانت «دينا» تعلم أن السيدة «وهيبة» ليست أمها حقًّا، ولكن شتَّان بين أن نعلم شيئًا لا ندرك معناه بسبب طفولتنا، وبين أن نُصفَع به ونحن في لحظة حالمة! لحظة تتربص بِها أي فتاة في سن الحيرة.. سن الاحتياج.

«وهيبة» لم تُمكِّنها أبدًا من الاستكانة لشعور البنوَّة والأمومة معها؛ فهي سيدة صعبة المراس، قاسية الطباع، نادرًا ما تلين في الحديث أو تبتسم.. سيدة من عائلة عريقة، صادفها حادث مرير في شبابها حال دون زواجها وتكوين أسرة كحال كل شابة، فتبنَّت «دينا» عِوضًا عن ذلك على أمل أن تؤنس وحدتها في الكبر، لكن تناقُض شخصيتها منعها من أن تمنح تلك الطفلة المتبناة بعض العطف والمحبة، فكبرت «دينا» دون أن يكون لديها رصيد مِن ذكرى طيبة مع السيدة «وهيبة»..

وعلى الرغم من حياة الترف التي اجتهدت لتوفرها لها، فإنها كبرت محرومةً من مشاعر كثيرة تمر بها الفتاة مع أمها؛ فلا مشاركة في اختيار ملابس، ولا تمشيط شعر

يُشعرها بأنها الفتاة المدللة، ولا جلسات بوح وأسرار كسائر الفتيات..

ولولا وجود «زهراء» الخادمة وزوجها «جِهاد» لجُنَّت «دينا» من الوحدة؛ فقد كان حنوُّ «زهراء» عليها ودعم العم «جهاد» وحمايته هو ما يهوِّن عليها أيامًا باردة قضتها في بيت السيدة «وهيبة»..

حتى ظهر «أحمد»..

وكأنَّها كانت تنتظر نظرةً حانيةً وبعض كلمات الغزل لتشعر بوجودها وأهميتها لدى أحدهم..

كان «أحمد» حلمَ مراهقةٍ جميلًا..

استمتعت بملاحقته إياها في الطرقات وسيره بسيارته خلف السيارة التي يقودها «جهاد» بـ«دينا» إلى المدرسة، ومحادثات الهاتف التي كانت تمتد طوال الليل..

حتى إنه كان قد أهداها هاتفًا تخفيه عن أمها لتتمكَّن من محادثته ليلًا دون أن تلفت الانتباه..

أكان كل هذا كذبًا؟

أكان كل هذا الوقت واهِ ومجرد طيف نزوة لشاب مراهق؟؟

قصرًا من رمال.. انهار عند أول دعسة من قدم الحقيقة؟!

اكتأبت «دينا» ومرَّت عليها أيام حزينة بين صدمتها في «أحمد» ولوم «وهيبة» وتقريعها، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ فقد أمرت «وهيبة» بمنعها من الخروج من المنزل مدة امتدت أسابيع.

نزلت «دينا» من غرفتها صباح يوم ترجو عفوًا:

- سامحيني يا أمي، أنا آسفة.

«وهيبة»:

- كيف لي أن أسامحك بعد أن وضعتِنا في هذا الموقف المهين؟!

- أخطأتُ يا أمي، أعترف.

- وبمَ يفيدني اعترافك؟ لقد جعلتِ وضعنا سيئًا، لقد كدتُ أنسحق من شعوري بالعار أمام هذا الرجل وولده، أهكذا تردين الجميل؟!

كلام «وهيبة» زاد الملح على جرح «دينا»؛ فقد كانت تنتظر عتاب أمٍّ حانية، لكنها لم تجد إلا التقريع والمن والأذى..

وعلى الرغم من النعيم الذي كانت ترفل فيه في هذا البيت، فإنه كان ينقصها شيء حقيقي، شيء جعلها تدوِّن خواطرها بحروف تقطر دمعًا..

كمثل القصة القديمة.. تحكي عن عصفور سُجِن في قفص من الذهب..

ليس لها في هذا البيت مَن يحنو عليها أو يؤنس وحشتها إلا «جهاد» السائق وزوجته «زهراء»، هما من حملاها وهي ما زالت صغيرة، وقامت «زهراء» بدور الأم الطيبة التي تربت بحنان وتقصُّ الحكايات، بينما وفَّر لها «جهاد» ما استطاع من حماية وأمن، حيث كان سائقها وحارسها الأمين..

اجتهد الاثنان في القيام بدور الأب والأم، لكن هيهات، اتسعت مساحة الحزن والألم في قلب «دينا»؛ حيث لا سبيل إلى تغطيتها..

كانت «زهراء» تواسيها في حزنها:

- لا تبكي يا «دينا»، أمك تريد مصلحتك، وما حدث مع «أحمد» لا يصح.

«دينا»:

- لم أشعر بأمومتها يومًا واحدًا، ليتها تركتني في دار الرعاية، كان ذلك أفضل، على الأقل كنت سأعتادها وأعرف أنها قدري، لماذا حملتني من القاع وطلعت بي إلى السماء إذا كانت ستجرحني كل يوم وتذكِّرني أني أبنت دار رعاية متبناة عديمة الأب؟!

«زهراء» في أسى:

- يا ابنتي، والله إنها تحُبكِ، هذه القسوة طبعها، لكنها تكُنَ لكِ مشاعر الحب وتتمنى لكِ أفضل شيء.

لم يكُن قد بقي على اختبارات نهاية السنة إلَّا عدة أيام، فكان يجب على «دينا» الاستذكار والتركيز؛ لكي تحصل على أعلى الدرجات، ومن ثَمَّ تنتقل إلى المرحلة الثانوية،

التي تحتاج إلى اهتمام أكثر، لكن دخول «أحمد» حياتها وانشغالها بالتفكير فيه، جعلاها تفقد كثيرًا من تركيزها!

كانت تعلِّق عليه آمالًا كبيرة وأحلامًا كانا قد رسماها معًا..

على الجانب الآخر، كان والد «أحمد» قد لاحظ تغيُّرات في شخصيَّة ولده، وأخبره أحد أصدقائه أنه شاهده في أحد مراكز التسوُّق بصحبة فتاة.

واجه ابنه، الذي لم يملك بدورهِ سوى الاعتراف لأبيه بإعجابهِ بـ«دينا» وحبه إياها، لكن والد «أحمد» امتعض عندما أخبرهُ «أحمد» بكل شيء عنها وعن أسرتها، وباسم أمها، المعروف عنها، في أرجاء المدينة، أنها امرأة غير متزوجة!

فما كان مِن «عابد» سوى جفوة القلب، والحرص على سُمعة عائلتهِ مِن القال والقيل، دون أي أعتبار لمشاعر ولدهِ الطائش.. ودون أي إعتبار لمشاعر إنسانة، لا ذنب لها، سوى أنها وِلدت في عالم.. الإنسان لا قيمة له إلا بِما يملك مِن مال وجاه ونسب.

وهنا وقعت الصاعقة على رأس «أحمد» عندما اكتشف أن «دينا» فتاة متبنَّاة، وليس لها أسرة ولا عائلة، وتخبَّط بين ركام أفكارهِ ووهم نبضات قلبهِ العاشق، وبين تهديد والدهِ إياه بأنهُ إن استمر في تلك العلاقة، التي ستسيء إلى سمعة عائلتهِ، فسوف يحرمه من كل شيء، بدايةً من السيارة والهاتف المحمول! فظفِرت السيارة والمحمول، وخسرت المشاعر التي لم تكد تكبر وتنضج إلا ودهُست أمام كلمة أنا.

لكنه، وفي مساء اليوم نفسه، وفي حيرة تامة لمراهق تاهت لديه المعاني، ذهب إليها، وهو يجرُّ خطواته آسفًا على أمنية جُهضت قبل أن تلِد، ليقدِّم لها هدية عيد

ميلادها، وفي أثناء وقوفهِ أمامها، شرع ينظر إليها بعينين جامدتين، لا تتألق بهما أضواء الروح ولا لوامع الشغف، وحياها بجمود على غير العادة عند باب منزلها، ما غصَّ بقلب «دينا» وأشعرها بالخوف وتسارعت دقات قلبها، لكن هذه المرة ليس عشقًا وهيامًا، إنما كان قلبها ينبض خوفًا وقلقًا، غير أنها لم تكد تسأل عن سبب جمودهِ إلا ووجدت أمَّها خلفها، أمسكت المرأة بيد «أحمد»، وقادته عنوةً إلى صالة استقبال الضيوف، ثم أوصدت الباب وبدأت توبِّخهُ وترميه بالاتهامات، وعلى عجلٍ اتصلت بوالده لتطلب منهُ الحضور فورًا!

هربت «دينا» إلى غرفتها، والخوف قد تملَّك قلبها، ولم تعُد، من شدة هلعها، تدرك أو تعي ما يجري حولها!

نصف ساعة مرَّ وكأنَّه دهر، لتأتي «زهراء» وتطلب من «دينا» النزول إلى غرفة استقبال الضيوف؛ حيث وجدت «أحمد» ووالدهُ مع أمها وامرأة أخرى لا تعرفها، وما لبثت «دينا» حتى بادرت بالجلوس، وعيناها قد احمرتا من شدة

البكاء والخوف، التزمت بالصمت حتى سمعت والد «أحمد» يوجِّه حديثه إليها بصوت عميق، ويقول لها بكل هدوء إن «أحمد» حبيبها الذي اختارهُ قلبها وآمن بهِ عقلها، ليس رجلًا، بل ما زال صبيًّا، وليس بمقدورهِ أن يتحمَّل المسؤوليَّة!

❋❋❋❋❋

(٢)

عادت بذاكرتها إلى طفولتها، وبالتحديد عندما بلغت السابعة من عمرها، حين كانت تلعب مع ابنة خالتها وتشاجرتا كما يتشاجر الأطفال، فكان أن صرخت البنت عليها وهي تردد:

- أنتِ لستِ ابنة خالتي، أنتِ من دار رعاية.

خبر كهذا وقع كالصاعقة على طفلة صغيرة؛ فمن كانت تظنها أمها ليست أمها الحقيقيَّة، لقد جرى تبنِّيها من دار رعاية أيتام، حين كان عمرها فقط سنتين ونصف السنة، وتعجبت كيف أنها عندما تلقت هذا الخبر في ذاك الوقت

لم تحزن، ولم تستوعب ما يُقال لها، بل بالعكس، أجابت حاملةَ الأخبارِ بكل شفافية:

- أعلمُ أنني لستُ ابنتها!

السيدة «وهيبة»، أم «دينا» بالتبني، عاشت أسوأ طفولة ممكنة، لم تكُن تستطيع الخلود إلى النوم إلا بأخذ قرص منوِّم، لعلَّها تنسى حادثة اغتصابها من البستاني الذي كان يعمل في حديقة أبيها.. لم تستطِع حينها أن تبوح لأمها وأبيها بذلك الجرم والانتهاك الفاضح، خوفًا مِن العار والعقاب، حينئذٍ توسَّلت إلى والديها بأن ترحل مع أخيها إلى مصر بحجة استكمال تعليمها، وبعد عدة محاولات كادت تبوء بالفشل، أقنعت «وهيبة» والديها، وسافروا جميعًا إلى مصر، كي يدرس أخوها، الذي يكبرها سنًّا، علوم الطب، بينما التحقت هي بمدرسة مصريَّة متوسِّطة، لتتمكَّن من تجاوز العتبة الدراسيَّة التي لم يكُن يُسمح للبنات في وطنها بالقفز من فوقها. مضت عدة سنوات من الاجتهاد والمذاكرة والتعب في الغربة، لكن كان فيها كذلك

كثير من المرح، الذي كلما حاولت أن تنغمس في تياره، متناسيةً مأساة حياتها المؤلمة، عادت الذكريات القاسية بقوة، لتفسد عليها نهاراتها، وتؤرق لياليها.

هناك في مصر، قابلت السعادة والحب، حيث عرفت أسرة مصريَّة لطيفة قضت معهم أوقاتًا سعيدة، وبخاصَّةٍ أن لهم ابنًا شابًّا يكبرها بأعوام قليلة وفتاة في مثل عمرها..

هناك، تناست قليلًا ما حدث معها وتذكرت سنها وضحكت وفرحت حتى جاءت آخر إجازة، وقبْلَ الرحيل قبَّل الشابُّ يدها وهو يخبرها بحبه وأنه سيفتقدها..

هنا، تذكرت «وهيبة» ما حدث لها في طفولتها، وتذكرت أنها ليست كمثل سائر البنات لا يحق لها أن تحب أو تحلم وأنها ينقصها شيء أُخذ منها عنوة في طفولتها..

عادت إلى بلدها بقلب حزين عازمةً على الالتفات إلى مستقبلها دون حب، دون مشاعر..

وبعد هذا وذاك، عادت إلى موطنها لتلتحق بالمرحلة الثانوية بقسم البنين بإحدى المدارس؛ حيث لم يكُن هناك حينذاك قسم مخصص للبنات، ظلت قوية وطموحًا، وثابرت حتى حصلت على شهادتها الجامعية.. لم تكتفِ بذلك وحسب، بل لم يهدأ لها بال حتى ارتقت وتبوَّأت أعلى المناصب، وقد حققت جزءًا من أحلامها وطموحاتها عندما أسَّست عدة جمعيات ترأَّستها، وتولَّت إدارتها بنفسها، كانت من عائلة ميسورة الحال وكانت أصغر إخوتها، وكانت تحب أخاها الوحيد «رضوان» حبًّا جمًّا، ولم يقلل ذلك من حبها ووفائها لأختيها «روبى» و«عبير» اللتين لطالما كانتا لها بمنزلة الأصدقاء.

على الرغم من أنّ «وهيبة» كانت جميلة، وكان جميع أقاربها وأصدقائها يشبهونها بالمطربة المعروفة «نجاة الصغيرة»، ما جعلها مطمعًا لكل شاب، وتقدَّم لِخطبتها كثيرون، بيد أنها كانت ترفض دومًا، فإنها لم تنسَ أو تتناسَ أنها حُرِمَت عُذريَّتها وانُتهِكت براءتها منذُ ذاك العهد الذي

يسمَّى زمن طفولتها، وذلك ولَّدَ بداخلها كرهًا واحتقارًا للرجال وانعدامَ ثقةٍ بِهم، وعلى الرغم من نفورها من فكرة الزواج، فإنها كانت دائمة الخوف مِن شبح الوحدة، وأن يأتي يومٌ لا تجد فيه أحدًا حولها أو بجوارها، ليساعدها ويؤنس وحدتها، وبخاصَّةٍ عندما تبلغ من العمر عِتيًّا، فقررت أن تتبنَّى فتاة، كي تكون بجوارها، وتلازمها ما تبقى لها من العمر.

في الأسبوع الثالث ما بعد الكارثة، رجعت «دينا» إلى حياتها الطبيعيَّة، وعادت أمها تبتسم لها وتعاملها بلطف وحنو تعجبت منهما «دينا»، ولم ينتهِ الأسبوع نفسه، وتحديدًا في يوم شِيار يوم السبت، ما بين ساعة الغسق نهاية الظلمة الباكرة، وقبل الولوج إلى وقت العتمة المطبقة، التي تغشى الأرض بستارٍ من الترقُّب والكلل، وبينما هما على مائدة العشاء، إلا وتجد «دينا» نفسها أمام أصعب خيار.

- «دينا»، لقد تقدَّم لكِ عريس اسمه «نواف»، وهو يقيم في مدينة أخرى ومن عائلة محترمة، وأنا أرى أنه مناسب لكِ.

- أمي، أنا لا أريد الزواج حاليًّا، فما زلتُ في السادسة عشرة، وأنا أرغب في مواصلة تعليمي؛ لكي أحقق طموحي وأصبح طبيبة.

- لا بأس يا ابنتي، تزوَّجي وأكملي تعليمك في كنف زوجك!

- أمي، أرجوكِ، لا أريد هذا الزواج.. إنني حتى لا أعرف «نواف» هذا، بربك يا أمي!

- «دينا»، الموضوع ليس قابلًا للنقاش، فإمَّا الزواج لكي تستري على مصيبتكِ، وإما أن تعودي إلى الملجأ.. امممم.. أقصد الدار!

صُدمت «دينا» بشدَّة؛ فهذه أول مرة تسمع فيها كلمة «ملجأ» تُقال أمامها علنًا، ولم تتمالك نفسها؛ فنهضت من فوق طاولة الطعام، وهرعت تركض بكل ما أسعفها به جسدها من سرعة وقوة إلى غرفتها، وعيناها مغرورقتان بالدموع.

ألقت بجسدها على السرير وظلت تكرر غير مستوعبةٍ ما سمعت:

- أعود إلى الملجأ! لِمَ أعود إلى الملجأ؟ وما الملجأ؟!

كانت يائسة محطمة، وراحت تحدِّث نفسها متسائلة:

- أهوَ مثل البيت الذي تربيتُ فيه، وكبرتُ بين أركانه؟ وهل سأجد فيه مربيتيَّ «عفاف» و«زهراء» والعم «جهاد»؟ وهل أشعة الشمس تدخل من نوافذه مثلما تداعب نافذتي كل صباح لتهمس لي بأنني الأميرة الجميلة، وبأنني سأصبح سيدة الكون الوحيدة، أم أنه في الحقيقة مكان موحش وبارد ومظلم، لن أرى فيه الضوء؟!

وطفقت تعاتب أباها وأمها الحقيقيين اللذين لا تعرف عنهما أي شيء:

- لِماذا رحلتما وتركتماني في هذه الحياة وحيدة، بِلا إخوة ولا مأوى ولا أقارب أعيش معهم وبينهم ما تبقَّى لي من العمر، أحيا بكرامتي وعزة نفسي؟!

مطلوب منها أن تشعر بالشكر للسيدة «وهيبة»، ولكن كيف وهي تتصيَّد الفرص لتذكِّرها أنها متبناة وابنة دار رعاية؟!

اعتُصِر قلبها ألمًا؛ فهي الآن أدركت وفهمت لِماذا لم تشعر بدفء أمها وحبها إياها، على الرغم من كل الرعاية التي تحوطها بها، ولِماذا لم تعتنِ بها، مثل كل الفتيات اللائي يحظين بتدليل الأمهات ومحبتهن ورحمتهن.

تذكَّرت وتذكَّرت، وظلَّت تبكي طيلة الليل، ليتها لم تتذكَّر، وليتها لم تعرف أنها مجرد فتاة لقيطة موصومة، بِلا أب ولا أم، وبِلا نسب تعول عليه!

وبدأت الحيرة والتساؤلات الملحة، راحت تتهم القدر وتدينه:

- لماذا أنا تحديدًا؟ لِمَ أنا من بين كل فتيات الدنيا؟ ولِماذا تبنَّتني إن كانت لا تريدني؟ هل لتطعمني وتكسوني مثل أي قِط موجود بالشارع، أم لكي تسمع كلمة «ماما» فقط، من غير أن تُتعب نفسها، محاولةً أن تعيش إحساس الأمومة؟! ولِمَ ترمي بي الآن، وبكل بساطة، في أحضان رجل لكي تتستَّر على فضيحتي؟ أين تلك الفضيحة التي يتحدثون عنها؟! هل لأنني عشتُ لحظات مراهقتي وطفولتي، أم لأنني عشتُ مع دقات قلبي بكل صدق وعِفة وأمانة؟ وما ذنبي أنا إن لم يكُن «أحمد» رجلًا ولم يصدق في وعودهِ؟ وما ذنبي إن كنتُ مراهقة طائشة لا تدرك حجم أخطائها؟ هل ما اقترفته من ذنب هين يستحق أن تزوِّجني لتتخلَّص مني، وترميني خارج أسوار منزلها، الذي هو منزلي أيضًا؟! إنها حتى لم تكلف نفسها عناء تقويمي أو توضيح الخطأ والصواب، كيف لها أن تكون بكل هذه القسوة وهذا القلب

الحجري؟ إن من يملكون هذه القسوة لا يحق لهم تبني أطفال، فحسبٌ هؤلاء الأطفال قسوة الحياة عليهم!

حاولَتْ مرارًا أن تنام لعلَّها ترتاح من تلك الأفكار ولكن كيف؟ كيف وكلمات «وهيبة» ترن في أذنيها، وصورة «أحمد» المتخاذلة الجبانة تهتز أمام عينيها؟!

*****

(٣)

لم تستطِع «دينا» أن تخلد إلى النوم، أرَّقها السهاد والألم، وقضت ليلها بين حزن وقهر ودموع، لكنها توصَّلت إلى فكرة أقنعتها بها إحدى صديقاتها وهي أن تقبل بهذا العريس مؤقتًا، حتى يهدأ غضب أمِها، ومن ثَمَّ تفسخ الخِطبة، وتعود إلى حياتها الطبيعيَّة، بين أحضان حجرتها التي كبرت فيها، وبين أصدقائها المخلصين الذين عرفوا عنها كل ما يؤلمها ولم يفكروا لحظة في تجريحها كما تفعل «وهيبة»، تشجيع صديقتها لها أعطاها أملًا كبيرًا أن تكمل مسيرتها، ولا تيأس، ولا تستسلم للقدر، إلا بعد أن تحقق كل ما تطمح إليه.

أخذتها سِنةٌ من النوم لم تدم طويلاً، بعد أن عقدت عزمها وقررت المجازفة!

راحت تتأمَّل فساتينها دون أن تهتم أيها أفضل لترتديه في هذه المناسبة، كانت قد اتصلت على هاتف «أحمد» من أجل أن تسمع صوتَهُ لآخر مرة، وظلَّت صامتة تستمع إلى تساؤلاته على الطرف الآخر، لم تستطِع الكلام بينما هو يردد:

- من؟ من؟!

كان جُرحها أقوى مِن أي كلام، وأخيرًا استقر رأيها على أن ترتدي فستانًا بتوقيع مصمِّم شهير منقوش على قماشه الشيفون، والمحلى بشريط ساتان باللون البيج، والمطرز بالزركشة السوداء اللامعة.

حرصت «دينا» على ألَّا تتألَّق أو تُبرز جمالها، وأن تكون بمظهر عادي جدًّا، غير أن خطتها الصغيرة فشلت، ونالت، ببساطتها وتلقائيَّة مظهرها، رضا الشاب وقبول عائلته،

جرت كل الأمور بسرعة، ووجدت الفتاة نفسها مُساقة إلى أحداث وتطورات لم تخطِّط لها، ولا تصوَّرت أن تتم بتلك السرعة، احتفظت بهدوئها ولم تجتهد في تبديل الثياب الغالية أو اختيار الهدايا الثمينة كحال كل العرائس؛ فقد اكتشفت تفاصيل كثيرة مؤلمة في أثناء رحلة إتمام هذه الزيجة؛ عرفت لأول مرة أن قران الفتاة المتبناة يُعقَد في المحكمة لا في بيت العائلة أو في أحد المساجد كباقي بنات العائلات..

الأمر محزن ومخجل.

تُرى مَن وضع هذه القوانين المجحفة؟ وهل وضعها إمعانًا في إذلال بنات دور الرعاية، أم وضعها متطرف قاسي القلب أبى إلَّا أن يكسر قلوبهن في يومٍ يُفترض أن يكون أسعد أيام حياة كل فتاة؟ خصوصًا أنه كانت هناك مشاهد معينة تقض مضجعها..

تذكَّرت ما رأته في المحكمة، ساعة عقد القران، من مناظر مخيفة، لا تفارق خيالها، لأشخاص قد كُبِّلوا بالحديد، وغُطَّت وجوههم ليُساقوا مهطعين، ويودعوا في السجن والحبس إيداعًا.. وقتها تملَّكها الشعور بالغضب لأنها علمت بأن فتاة الملجأ، التي بلا أهل مثلها، يكون وليُّها الشرعي هو القاضي، ويجب أن تحصل على إذن الزواج منهُ شخصيًّا، وهو الذي لم يرق قلبه، أو يتحنَّن على فتاة صغيرة قسا عليها الزمن، فيقبل بأن يأتي إلى مقر الخطبة ليتمم الإجراءات الرسميَّة، فكان عليها أن تقبل بأن تكون إجراءات عقد قرانها في مكتبه المريح بالمحكمة العامَّة، مهانة، وأي مهانة؟!

أما أمُّها فقد حرصت كل الحِرص على أن تكون مراسم الخِطبة في قصر شقيقتها الكبرى، وأن يكون بقمة الفخامة، وبصورة تُبهر جميع الحضور، من أجل أن تجعل كل الناس لا يكفون عن الحديث عن رقي الخِطبة

وفخامتها، كل ذلك لتشبع غرورها ونرجسيَّتها المفرطة، ولكي تكيد أهل «أحمد»، الذين تكبروا ولم يتقدموا لخِطبة ابنتها، ورفضوا ذلك النسب وتلك الصلة.

ولعلَّها أرادت أن تعوض فرحًا حُرمته هي شخصيًّا أو تلفت أنظار الجميع إلى أنها قادرة على إتمام كل أمور حياتها كما تريد بالضبط وأنها موفَّقة في بيتها كما هي موفَّقة في عملها ومركزها.

أما «نواف» فقد كان وسيمًا وجذابًا، ومطمع كل فتاة عاشقة للجمال، غير أنه كان من بيئة مختلفة تمامًا في قواعدها وتنشئتها وعمَّا تربَّت عليه «دينا» وما ألفته، لم يحاول أبدًا أن يكلمها أو يتعرَّف إليها جيدًا؛ ففي عرفهم وتقاليدهم لا يليق أن يتحدَّث مع زوجته إلَّا بعد الزواج، وكان هو منهمكًا في التحضير ليوم الزفاف، لكن «دينا» طلبت منه أن يكلِّمها كل يوم، لكي يتعرَّف بعضهما إلى بعض

أكثر، وحتى تعطي نفسها فرصة لعلَّها تجد في قلبها القبول والرضا من ناحيته.

اجتهد «نواف» وكسر بعض قيود عاداتِهِ المتزمِّتة، وأصبح يتحدَّث إليها كل يوم في الساعة الثانية عشرة مساءً ولمدة لا تتجاوز الدقائق العشر، ما جعل صديقات «دينا» المرحات يتهلَّلن بالمزاح كل يوم، ويتمازحن حول دق جرس الغرام وموعد سندريلَّا اليومي مع حبيب القلب.

استمرت محاولات «نواف» المخلصة للتقرُّب إلى «دينا» وامتلاك قلبها قرابة الشهرين، إلَّا أنَّ الفتاة لم تحس تجاهه بأي مشاعر، وطلبت منهُ بكل هدوء وحذر أن يدعها، وأن يبادر هو بطلب فسخ الخطبة، خوفًا مِن ألَّا تقبل أمُّها ذلك، غير أن «نواف» الذي أحبها بصدق رفض التخلِّي عنها، ووعدها بالاستقرار والأمان والسعادة عندما يتزوجان، واستمر في محاولاته المستميتة لاستمالتها.. في المقابل، كانت «دينا» تحاول جاهدةً أن تجعله ينفر منها، بإهمالها إياه وتجنبه ومعاملته بجفاء، والأدهى أنها عندما

تأكدت من فشل خططها للتخلُّص منه، ادَّعت أنها ليست بِكرًا، وكذبت مختلقةً قصة أنها فقدت عُذريتها مع حبيبها، لم يقتنع «نواف» بكلامها ولم يصدقه، وأصر على موقفه وهو يردد على مسامعها:

- لقد زاد تعلُّقي بكِ يا «دينا» وأحببتك، اتركي لنفسك فرصة التجرِبة وأعدك أني سأكون عوضًا لك عمَّا حدث معك.

حتى جعلها ترضخ وتقبل مستسلمةً في النهاية، بعد أن وافق على شرط أمها «وهيبة» بأن يغيِّر مقر عمله، ويأتي ليعيش بالقرب من بيتها، لتكون ابنتها بالقرب منها!

انشغلت «دينا» بتجهيز نفسها ليوم الزفاف، وأصبحت تقضي معظم أوقاتها بين السوق؛ حيث تبتاع أفضل الماركات العالميَّة وأغلاها وأعلاها جودةً، وبين مصممة الأزياء الذي عهدت إليها بمهمة تفصيل فستان زفافها.

قبل يومين مِن موعد الزفاف، انهارت في نوبة بكاء، وأعلنت عصيانها، وأنها لا تريد إتمام هذا الزواج، كانت نوبة تمرُّد طارئة وعنيفة، لكنها وجدت قلوبًا غُلفًا في مواجهتها، ووبَّختها أمها التي جهَّزت أفخم قاعة من قاعات المناسبات في المدينة كلها، بغية التفاخر والمباهاة، ودعت معظم وجهاء أهل المدينة وأعيانهم..

قبل الزواج بيوم، دعتها ابنة خالتها إلى منزلها، وبعد مباركات بالعرس أقبلت عليها الفتاة تُسرُّ إليها سرًّا:

- السيدة «وهيبة» ليست قاسية كما تظهر، لكنها عانت في طفولتها أمورًا لمَّا يتمكن الزمن من محوها، وعلى الرغم من قوتها ونجاحاتها لم تقدر على تخطيها، فلا تحزني يا «دينا»، هي حقًّا تحبك ولكن ما حدث لها شوَّه نفسها وأساء إلى فطرتها فلم تعُد قادرة على العطاء كأمٍّ أو امرأة.

تم الزفاف في ليلة مِن أجمل الليالي التي مرَّت على المدينة، كانت تشبه قصص وروايات ألف ليلة وليلة، وبعد الزفة وصعود العروسين إلى جناحهما، طلبت «دينا» من «نواف» أن يتركها وحدها لكي تغيِّر ملابسها.. اعتقد أنه الحياء والخفر، فغادر بهدوء، لكن بمجرد أن غادر حجرة النوم سارعت «دينا» بقفل الباب خلفهُ، كانت في حيرة وارتباك شديد، لكنها أدركت بغتةً أنها ليست مستعدة لخوض هذه التجربة في الوقت الراهن، وتركته ينام على أريكة المجلس غاضبًا منها، بعد إخفاق محاولاتهِ بإقناعها أن تفتح له باب غرفة النوم؛ فهو زوجها ويريد أن يقضي معها أجمل يوم في حياتهِ، في الصباح الباكر دعاها لتتناول معهُ وجبة الإفطار في مطعم الفندق، لكي يتسنَّى لهما بعد ذلك زيارة أمِّها المتلهفة!

لكن، وما إن فتحت «دينا» باب غرفة النوم، حتى انقضَّ «نواف» عليها ليأخذ حقهُ الشرعي منها، مغتصبًا رغبتها، ومتجاهلًا طلبها الصبر والتأجيل، ليشبع رغبته

منها دون موافقة قلبها وعقلها، استحوذ عليه شعور بالنشوة والشهوة، ورجا حينها ألا تقف عقارب الساعة، بينما تملَّكها هي شعور بالبغض والاشمئزاز، وتمنت لو أن الأرض انشقت وابتلعتها في أعماقها السحيقة!

فكيف ستعيش حياتها مع شخص بعد بداية كهذه؟!

لقد نغَّص «نواف» بفعلته هذه حياةً لم يبدأها بعدُ مع «دينا»، لم يقدِّر صغر سنها ورهبتها من الموقف؛ فبعد أن كانت قد بدأت تعتاده وتتقبَّله في أثناء مدة الإعداد للزواج هدم كل شيء وعادت مشاعرها معه إلى ما قبل الصفر.

سافرت العروس مرغمةً إلى مسقط رأس زوجها، لتعيش معهُ ريثما تأتي موافقة جهة عمله على طلبهِ النقل إلى مدينتها.. وبعد مرور أسبوعين، توسَّلت «دينا» إلى «نواف» بأن يسمح لها بالسفر إلى بلدتها، متعللةً بحضور زفاف ابنة خالتها، وبعد مكوث «دينا» عدة أسابيع في منزل أمِها، حدث ما لم يكُن في الحسبان، ولا ورد على الخاطر، فوجدت نفسها حاملًا! حاملًا مِن شخص لم تحبهُ يومًا، ولم تُطِق الحياة معه للحظة، حاولت عدة مرات أن تتخلَّص من هذا الحمل، بيد أن مشيئة الله فوق مشيئة البشر، ما جعلها مضطرة لإخباره بأمر حملها، حينها أتى «نواف» ليقيم معها في منزل أمها، حتى يجهز منزلهما..

بعد انتقالهما إلى منزلهما القريب من بيت أمها «وهيبة»، تغيَّر «نواف» كثيرًا، شعوره برفض «دينا» إياه جعله يتذكَّر اعترافها له أنها كانت تحب شخصًا قبله..

حتى إن حملها طفلًا منه لم يشفع لها عنده ولم يجعله يتوقَّف عن إيذائها بالقول والفعل؛ فقد تمادى في معاملتها

بقسوة، إلآ بلغ أن يضربها في بعض الأحيان، وعندما اقترب موعد ولادتها طلب منها أن تعود لتعيش معهُ في مدينتهِ، لكنها أبت وطلبت منه الطلاق، فما كان منه إلَّا أن حاول استردادها بقوة القانون!

ولأول مرة، تعرف «دينا» أنها إذا لم تعُد إلى زوجها، فسيأتي مَن يأخذها عنوةً ليرمي بِها في دار الرعاية، لتعود فتاة مُهمَلة بلا أهل ولا نسب، وربما ينتهي بها الحال إلى الإهمال والترك في دور للعجزة والميؤوس من تعاسة بقائهم.. كانت تظن أنها ستعود إلى بيت «وهيبة» مرة أخرى وتحيا منعَّمةً تعتني بطفلها، لكنها صُدمت بالواقع للمرة الألف، حتى إنها رفعت رأسها باكية للسماء:

- يا رب، إلى متى أكفِّر عن ذنب لم أرتكبه؟ وما ذنب طفلي فيما أقاسي؟

جلست «دينا» تحاول أن تهدِّئ مِن صراخ ابنها الرضيع «سلطان» وتسقيه من حليبها لكي يهدأ ويسكت، وفي أثناء قيامها بواجبات الأمومة دخلت عليها خالتها «روبى»، لتساعدها في إسكات الطفل وقالت لها:

- ابنتي، يجب أن تفكري في نفسك، وفي مستقبل ابنك، ولا تنصاعي إلى وسوسة الشيطان، ارجعي إلى زوجك وبيتك، وإن شاء الله سيصلح ما بينكما وتعيشان في سعادة تامة.

أبت كرامة «دينا» أن تخضع للمحاولات المتكررة مِن أقاربها، التي باءت كلها بالفشل، بأن تعود إلى «نواف»، الشخص الذي لم يلتزم بكلامهِ ووعودهِ لها حين عاهدها على الحب والسعادة والأمان، وأكمل مسيرته معها بالضرب والذل والإهانة، فما كان منها إلَّا أن تصرَّ على موقفها بعدم العودة إليه، حينها أخبرتها «روبى» بأن هناك مندوبتين من دار الرعاية سوف تحضران لتصحباها إلى المؤسسة، لتُنقَل للعيش فيها، ما دامت لا تريد الرجوع إلى «نواف»!

غضبت «دينا» جدًّا مِن موقف أمها التي رفضت أن تأخذها وتعتبرها ابنةً حقيقيَّة لها، ووافقت بكل بساطة على أن تجعل ابنتها تعود إلى الدار مكسورة الجناح والخاطر، ولم يكُن لـ«وهيبة» مبرر وجيه للأسف، سوى أنها لا تريد أن تكون سببًا في خراب بيتها، وتود الضغط عليها لترغمها على الرجوع إلى بيت زوجها، غير أنها نسيت أو وتناست أنها هي مَن أصرَّت على أن تزوِّجها بهذا الشخص المريض نفسيًّا.

لم تمر ساعات إلَّا وقد وصلت مندوبتا دار الرعاية.. في تلك اللحظات، أتت «روبى» لتودعها وتحتضنها، وقد ملأت عينيها الدموع، مصحوبةً بنظرات التوسُّل بأن تعدل عن رأيها، لكنها حين رأت إصرار «دينا» على موقفها وتشبُّثها به، ما كان منها سوى الاستسلام والدعاء لها، وإعطائها مبلغًا ليس بقليل من المال، لكي تنفق على نفسها وعلى ابنها في أثناء وجودها في دار الرعاية.. الغريب أن «وهيبة» كانت تشاهد كل هذا وتسمعه دون أن يرف لها

جفن، ما زالت قسوتها تدهش «دينا» وتزيد حزنها حزنًا، كانت تعتقد أنها عندما ترى مندوبتي دار الرعاية قادمتين لأخذ «دينا» ووليدها سيرق قلبها، وبخاصَّةٍ أنها لم تكمل شهرًا منذ وضعت طفلها، إلَّا أنها لم تُلقِ لها بالًا حتى!

بدأ الخوف يُداخل قلب الأم الشابة، وبدأت خطوات قدميها تثقل وتتباطأ، وهي تعبر باب الدار، الذي لم يختلف كثيرًا عن بوابات السجون التي كانت تراها في الأفلام، ولم تكَد تجتاز ساحة الدار، التي كانت صغيرة وكأنها ساحة إعدام تُنفَّذ فيها أحكام الموت على القتلة الدمويين، أو منتهكي براءة الأطفال والقاصرات، إلَّا ووجدت نفسها تعبر أمام أبواب غرف متشابهة وصغيرة ومرقَّمة، لكنها لم تتوقَّف إلَّا أمام مقر الإدارة الذي كان عبارة عن غرفتين صغيرتين قد طُليت جدرانهما باللون الأخضر الذي عكس وهجًا ساطعًا منعكسًا من الإنارة المتلألئة الزائدة عليهما، ما جعلها تشعر كأنها في غرفة تفتيش في سجن جيتامارا المرعب.. حينها، راحت تتأمَّل المندوبة وهي تقدم ملفها

لمديرة دار الرعاية، التي استقبلتها بدورها بكل برود وجمود، وكأنَّها تسلَّمت ملف مجرم مطلوب للعدالة، وبعد التحقيق المبدئي طلبت من إحدى العاملات الأجانب أن ترشدها إلى حجرتها.

تقدمت العاملة مطموسة الملامح، تحت «إيشارب» معقود يخفي جبهتها وحاجبيها، أمام «دينا»، وقادتها عبر أحد الممرات، فدلفت «دينا»، حاملةً رضيعها الساكن، خلفها إلى مسكنها الجديد، ظلَّت الشابة واجمة وهي تتأمل غرفتها التي تحمل رقم ٢١. كانت صغيرة وبالية جدًّا، حتى إن جدرانها حفلت بالتشققات والشروخ العميقة، ولاحظت أيضًا انبعاث رائحة كريهة منها، مما اضطر «دينا» المصدومة إلى أن تنفح العاملة بمبلغ مالي، مقابل أن تنظف لها الغرفة والحمام وتعقِّمهما، وتجلب لها مفتاحًا كي تستطيع أن تقفل الباب من الداخل لتحمي نفسها وابنها من أي طارئ لا تتوقعه، لم تكَد تلتقط أنفاسها إلَّا وسمعت صوت أذان المغرب يجلجل،

فتوضأت وصلت، سجدت طويلًا ولم تدرِ بنفسها إلَّا وهي تطلق لمشاعرها العنان، فانسابت الدموع من عينيها وتردد داخلها صراخ حبيس، لو تجاوز صدرها المغلق عليه لأسمعت العالم بأسرهِ صداه، صيحات تعبر عن ألمِها وعذابها، وقسوة الظلم الذي ترتشف مرارته من أقرب الناس إليها، من أمٍّ تبنتها فقط لتؤمِّن نفسها من عوادي تقدُّم السن وتغيُّر الزمان، ومِن زوج وأب لابنها تلذَّذ بِذُلِّها وتمتَّع بتعذيبها، وشرعت تدعو الله أن يرحمها ويخفف عنها مرارة الأيام التي ستقضيها بين جدران سجنها وبين عُزلتها وقهرِها، وهي ما زالت ابنة السابعة عشرة من عمرها.

أبى النوم أن يداعب جفنيها، لم تكُن هناك أي وسيلة للترفيه وقطع الوقت سوى التزام الصمت والسكون، خرجت من غرفتها متوجسة خوفًا من الهدوء والظلام اللذين خيَّما على الدار، فلمحت حارسة الدار «نورة» التي كانت سمراء اللون وتحمل ملامحها طابعًا قاسيًا وجامدًا، كما كان لها أيضًا صوت أجش وخشن، فاقتربت منها بهدوء

تستأذنها للجلوس معها للتحدث، من أجل قطع الوقت الذي كاد يقف عند العاشرة مساءً، ورفض أن يتقدم دقيقة واحدة بعدها، رحبت «نورة» بِها على مضض، ولكن لم تمضِ دقائق معدودة إلَّا ووثقت الألفة بينهما، وتبادلتا الأحاديث والآهات.

ظلَّت «دينا» تقضي أيامها موزِّعةً وقتها بين حزن ودعاء وذكريات محزنة، ورعاية ابنها المسكين، الذي شاء لهُ القدر أن يحيا أيامه الأولى بين أسوار الأسى صارخًا، يأبى هذه العيشة المهينة لطفل مثلهِ لم يُتم أربعين يومًا!

لم تكَد تمر عليها عدة أيام إلَّا ووجدت المال الذي كان في حوزتها قد نفد؛ فالدار لم تكُن تقدم لها الحليب الصناعي لإرضاع ابنها، ولا الحفَّاضات المخصَّصة ليقضي فيها الرضع حاجتهم، ما جعلها مضطرة إلى أن تدفع إكراميَّات لحارسة الدار لتجعلها تلبِّي لها احتياجاتها واحتياجات ابنها، خصوصًا وجبات الطعام، فهي ما زالت في الأيام الأربعين الأولى بعد الولادة، التي تحتاج فيها إلى الغذاء المفيد لكي تقوى على الحركة، وتسترد عافيتها، بعدما أرهق جسدها من متاعب الحمل والولادة ومشقتهما.

في أحد الأيام، عقب مرور مدة قصيرة من إقامتها في الدار، وبعد الساعة الواحدة والنصف ظهرًا، بدأت تسمع فجأة صوتًا يدل على أن هناك مَن يحاول أن يفتح باب حجرتها، وأن يدخل دون أي استئذان، ما أثار الخوف في قلبها، وحين بادرت بفتح الباب وجدت أمامها رجلًا يوبخها، ويسألها لماذا تقفل الباب مِن الداخل! ووثب إلى الغرفة ليفتشها، وعندما لم يجد شيئًا محظورًا أو غير مسموح به، خرج وهو يتطلَّع إليها بنظرات كلها حقد وغضب، لا تدري ما سببهما، وتملكها الخوف مِن فكرة ظهور رجل في دار لا توجد فيها، كما يُفترض، سوى النساء! ومتى؟! قرابة منتصف الليل!

في بداية الأسبوع الثاني، أبلغتها مديرة دار الرعاية أنه قد تحدَّد موعد سيُعقد فيه اجتماع، يضم زوجها وأشخاصًا مسؤولين مِن المؤسَّسة كي يصلحوا بينهما، وبعد تلقِّي الخبر جاءتها اختصاصيَّة لتتحدَّث معها، وتحاول إقناعها بالرجوع إلى زوجها، لاحظت «دينا» أن

الاختصاصيَّة تحمل معها هاتفًا محمولًا، فطلبت منها إذنًا بإجراء محادثة تليفونيَّة، فأعطتها السيدة الهاتف بأريحيَّة، لحظتها اتصلت على مَن سلبها قلبها، حين أحبتهُ، وسلبها حريتها عندما خذلها، وبمجرد أن سمعت صوت «أحمد» يرد على الهاتف، متسائلًا عن شخصيَّة المتصل، حتى قالت لهُ إنها في الدار، وطالبته مباشرة بأن ينقذها من هذا السجن، وأن يحافظ على حبهما، ويفي بوعده القديم، فيتزوجها بعدما تُطلَّق من «نواف»، لكنه وبكل أسف عرَّضها لمرارة الخذلان والغدر من جديد، وضحَّى بها مرة أخرى وبكل سهولة.. في هذا الوقت بالذات، ومع كم مشاعر الغضب والقهر الهائلة، قررت أن تعود إلى سجن «نواف»، ولكن هذه المرة ستفرض شروطها بأن يحسن معاملتها، ولا يعنِّفها أو يذلها، وأن يسمح لها بزيارة أمِّها بين حين وآخر.

سافرت «دينا» مع «نواف» إلى مدينته، واستقرا في شقة مفروشة إلى أن يجهز منزلهما، وبدأت معاناتها روتين الحياة اليوميَّة الذي لم تعتَده أو تتعلمه في بيت أمها، من تنظيف الشقة وإعداد الطعام داخل مطبخ صغير غير مجهَّز بأدوات الطهي ولوازمه، واستمر هذا الحال لمدة أسبوعين، وقبيل انتقالهما بيوم إلى بيتهما الجديد، جاء «نواف» من العمل، ووجد قليلًا من رغاوي الصابون على أرضيَّة الحمام المبلَّلة، فبدأ بالصراخ والشتم، وحاولت «دينا» عبثًا إفهامه أنها كنت تُحمم ابنهما «سلطان»، لكنها لم تكَد تبدأ حديثها إلَّا وانهال عليها بالضرب المبرح، ما أدَّى إلى إصابة رأسها وبعض أجزاء من جسدها بجروح وإصابات متفرِّقة.

ظلَّت تتحمَّل الذل والمهانة والضرب، حتى اقترب موعد اختبار الثانويَّة العامة، التي التحقت بها في مدرسة خاصَّة على نفقة أمِّها، «وهيبة» التي شعرت بتأنيب الضمير لِمَا حصل لابنتها، والتي رأت بأم عينها، حين زارتها

مصطحبة معها «سناء»، بنت أختها، وزوجها، شكل معاملة «نواف» السيئة والقاسية لها، حتى حين حاولت أن تتدخَّل، وأن تكلمه بهدوء لكي يحسن معاشرة زوجته، ما كان منه سوى أن شتمها وأهانها، وطردها من بيتهِ هي و«سناء» وزوجِ الأخيرة أيضًا، كل ذلك كان نقطة في بحر، لكن «دينا» تمسَّكت بحلمها في إكمال تعليمها، وفي أثناء الدراسة تعرَّفت الزوجة الصغيرة المعذبة إلى كلٍّ من «نورة» و«مها» وأصبحتا أقرب الأصدقاء إلى قلبها، وجودهما هوَّن عليها كثيرًا، واللحظات التي كانت تسرقها لتجلس إليهما كانت تعينها على الأيام الطويلة التي تقضيها في محاولات استرضاء «نواف» وتجنُّب أذاه، كانتا تلمان بكل شيء عن حياتها، والمآسي التي تعيشها مع «نواف»، لدرجة أنهما وعندما تجدان أنه قد طال غيابها عن المدرسة، ترسلان إليها بمذكرات الدروس وملخصاتها، والواجبات المطلوبة، تتركانها تحت باب الشقة، لكي يتسنى لـ«دينا» المذاكرة، ومتابعة الواجبات المنزليَّة.

شرحت «دينا» لمديرة المدرسة الثانويَّة، أستاذة «لطيفة»، كل شيء عن وضعها، وحكت لها طرفًا من قصة حياتها، وبالتالي تعاطفت معها بدورها، وعاملتها بكل حنية وود وحب، لم تنسَ «دينا» أبدًا موقف الأستاذة «لطيفة»، التي بفضل رعايتها وتفهمها، حصلت على الشهادة، خصوصًا في أيام الاختبارات؛ حيث كانت تنتظر حضورها، حتى في حالة تأخرها وقتًا أكثر من المسموح به؛ وذلك لإدراكها أن «نواف» لا يريد لها أن تحصل على الشهادة، وكان يختلق لها المشكلات كي لا تكون مستعدَّة للاختبارات، ويؤخِّرها عن الذهاب إلى المدرسة كل يوم، وفي آخر يوم من الامتحانات ضربها وأهانها، لكن «دينا» لم تبالِ ولم تقف مكتوفة اليدين، ولم تضع مصيرها ومستقبلها تحت رحمة طيش «نواف» ومرضه، بل ذهبت إلى الاختبار مسرعة، ودقات قلبها تتسارع بقوة، وكان الاختبار قد بدأ منذُ نصف ساعة، وحين بلغت المدرسة وجدت حارسة البوابة في انتظارها، وبدورها أدخلتها بأسرع

وقت إلى مقر لجنة الامتحان، وبعدها ذهبت لتغمز بعينها للأستاذة «لطيفة»، معطيةً إياها إشارة الاطمئنان، وكانت المديرة لأول مرة قد خالفت النظام، وعطَّلت الموجِّهَ عن البدء بالقيام بالجولة التفتيشيَّة، للتأكُّد من وجود جميع الطالبات في لجانهن، خالفت النظام لكي تحيي روح النظام والقانون، فقبل أن تكون معلمة أو مديرة هي أم، وهي صاحبة رسالة أسمى من كشف حضور وانصراف؛ لأن تأخير نصف ساعة مراعاة لظروف فتاة عاشت العذاب والحرمان، ليس بكل تلك الأهمية، مقارنةً بتحقيق جزء من طموحات «دينا»، التي قد تكون سببًا في تغيير مجرى حياتها، وقد تكون أيضًا بشرى لدخول الفرحة إلى قلبها، الذي ظل سنينَ محرومًا منها.

اجتازت «دينا» مرحلة الثانويَّة العامَّة بدرجات عالية جدًّا، على الرغم من كل الظروف التي واجهتها، فطموحها ورغبتها بإثبات ذاتها كانا أكبر من أن تقف راضخة لليأس، أو أن تسمح لغيرها أن يرسم خطوط مستقبلها بدلًا منها، ولن تهدأ حتى تحصل على الشهادة الجامعيَّة بعد ذلك!

حقًّا كان قدرها أن تكون فتاة ملجأ، لكن ذلك لا يعني أنه ليس من حقها أن تحدد طريقها وتختاره بنفسها.

لكنها لم تكَد تسحب جميع الأوراق التي تُثبت تخرُّجها في الثانويَّة العامَّة، إلَّا وبدأت تلح وتتحايل بكل ود وحب على «نواف» كي يسمح لها بالسفر لزيارة أمها، والمكوث عندها بضعة أيام.. وبعد موافقة «نواف» على السفر، رحلت إلى مدينتها لكي تنفِّذ أول مرحلة في خطتها، وكانت تقضي بألَّا تعود إلى هذا الجحيم، وأن تُطلَّق وتستقلَّ بذاتها، وتبدأ مشوار حياتها الجديد بالتقدم للالتحاق بالجامعة، وبالفعل تقدَّمت بشكوى شفهيَّة ضد زوجها في دار الرعاية، وشرحت كمية الإهانة والإساءة التي وجَّهها

إليها، وكيف أنه لم يفِ بالاتفاق المبرم بينهما، ومن ثَمَّ طلبت الطلاق، وبعد انتظار طال لمدة سنتين حصلت على صك الطلاق، لكن بشرط أن يعود ابنها «سلطان» إلى والده!

في البداية، أبت ورفضت، ولكن بعد تفكير عميق وافقت، لِمَا في ذلك من خيرٍ لابنها ومستقبله، لكن قلبها راح ينزف حزنًا على فراق ضناها، كان عليها تحمُّل معاناة الحياة وحدها، وبسبب ذلك سيبعد عنها ابنها، حتى حينٍ لا تعرف مقداره بالضبط!

❊❊❊❊❊

(٤)

ظلَّت «دينا» مبتسمةً وهي تمشي بين أروقة الجامعة، متأملةً جدرانها المغطاة بالرخام الإسباني ذي اللون البيج، والطراز العمراني الجميل الذي يحمل في جنباته الزخارف الإسلاميَّة التي يفوح منها عبق العراقة والأصالة، ولم تشعر بالوقت إلَّا وهي أمام قاعة المحاضرات، وهنا تحديدًا أخذت شهيقًا عميقًا، فما وراء الباب سيكون أولى خطوات مستقبلها، الذي طالما حاربت وجاهدت وسهرت الليالي تتقلب بين الأمنيَّات، لتصل إلى أولى عتباته المغرية، بدأت عامها الجديد بقرارات جديدة، أهمها ألَّا تلتفت إلى الماضي، وألَّا تسمح لأحد بأن يسرق منها حُلمها، وألَّا تقف لحظةً متبطلة أو كسولًا، ولو حتى لالتقاط أنفاسها، في

سباق الماراثون، حتى تحصل على الشهادة الجامعيَّة. عادت إلى الحياة الطبيعيَّة وتعرفت إلى صديقات جديدات، ثلة من الشابات الناضجات المفعمات بالأمل، كُنَّ التعويض عن سنوات العزلة وانقطاع الرجاء، فزميلة الدراسة «أمل» كانت بالنسبة لها الأخت التي حُرمت منها، أما «إيناس» فكانت الضحكة التي تعُمُّ أرجاء أي مكان بخفة ظلها، خصوصًا حين تروي القصص والمقالب التي تفعلها في أهلها وصديقاتها.

مرَّت سنة الدراسة الأولى بسرعة خاطفة، ومضت محملةً باللطف وحلاوة المعشر والقرب من الصديقات، وتكررت زيارات بعضهن لبعض خلالها، إمَّا للمذاكرة ومراجعة المناهج، وإمَّا ليتسامرن ويقضين أمتع اللحظات معًا، وذلك في منازلهن أو في المقاهي، حين يتجمَّعن لاحتساء «الكابتشينو» و«اللاتيه»، لكن «دينا» كانت تشتاق إلى ابنها الوحيد «سلطان»، الذي لم يكُن والده يرسله لزيارتها إلَّا قليلًا جدًّا، وبخاصَّةٍ في نهاية الفصل

الدراسي الأول، ما جعلها تفكر كثيرًا برغبتها في طفل ثانٍ لتعوِّض معه مشاعر الأمومة الحقيقيَّة، التي لم تستطِع أن تمارسها مع «سلطان»، بسبب الضرب والتعنيف والإهانة التي عاشتها مع «نواف».

مع بداية الإجازة، تعرَّفت إلى فتاة اسمها «ريم» وأصبحتا صديقتين، «ريم» فتاة قمحيَّة اللون، ملامحها جدًّا عادية وتقليديَّة، وجسدها نحيل لا يوجد بهِ ما يُلفت أو يُثير من مفاتن، حين تراها لن يلفت نظرك سوى المشغولات الذهبيَّة التي تتحلى بها في غالب أوقاتها. بعد مدة صغيرة مِن الزمن أقنعت «ريم» صديقتها الجديدة بأن تعمل معها في دار لرعاية الأيتام؛ فقد كانت «دينا» تريد أن تتمتَّع بالاستقلال والاعتماد على نفسها في مصاريفها، خصوصًا أن الإجازة الجامعيَّة طويلة، مداها أربعة أشهر، ويمكنها أن تستفيد منها في عمل نافع.

و بعد مرور ثلاثة أسابيع كانت مليئة بالزيارات والخروجات، وفي أحد الأيام، كانت «دينا» في منزل «ريم» الذي تقطن فيه بمفردها مع ابنتها ذات العامين بعد أن طُلِّقت، لكن «دينا» أحسَّت حينها بحركة غير اعتياديَّة في البيت، ما جعلها تشعر بالقلق والريبة، وعندما واجهت «ريم» بمخاوفها، صرحت لها الأخيرة بأن ثَمَّةَ شخصًا معهما في المنزل، كان رجلًا، شابًّا من معارفها، يعمل بوظيفة كابتن طيار، يبحث عن زوجة، وذكرتها «ريم» له، فأتى ليراها خلسةً من خلف حاجز خشبي بني أجوف، بهِ فتحتات سداسيَّة الشكل، واعتذرت «ريم» من صديقتها بأنها كانت تخشى أن تستأذنها أو تصارحها بحقيقة الأمر فترفض، غضبت «دينا» منها على فعلتها التي اعتبرتها نوعًا مِن الزيف والخِداع، ولكن لم تمضِ أيام معدودات إلَّا وجاء العريس المتلصِّص وأخته «أريج» و«ريم» ليتقدموا لخِطبة «دينا»، لكن الأخيرة رفضت لعدة أسباب، أولها: الطريقة التي استخدمها ليراها، ومن ثَمَّ أنَّه لم يكُن مستقرًّا

في مدينتها نفسها، وكانت تخاف أن تعيد غلطتها الأولى نفسها.

على الرغم من أن «دينا» لم توافق على خِطبة شقيق «أريج»، إلا أنهما اصبحتا صديقتين وعلى وفاق دائم.. في أحد الأيام، كانت «دينا» و«ريم» تتحدثان عن ملل العمل، وعن رغبتها في التغيير للأفضل، حاجبةً عنها السبب الرئيس بأنها لا ترتاح للعمل في مؤسَّسة رعاية الأيتام، المؤسَّسات المرعبة التي هي للأسف واحدة من أبنائها، كرهًا منها وليس طوعًا، لم تنسَ ولم تستطِع أن تتناسى الأيام التي عاشت بين جدرانها وهي سجينٌ وبين يديها «سلطان»، نعم هي الآن موظفة، وتغيَّرت المعاملة والظروف بالنسبة إليها، لكنها تشفق على فتيات الدار، وتتحسَّر على ظروفهن الصعبة التي جعلتهن يضطررن للعيش في مثل هذا المكان، قدمت كثيرًا للمساعدة والتخفيف عنهن، لكن وجودها في هذا المكان كان يُحبطها ويذكرها دومًا بأنه مهما فعلت ومهما ارتقت وظيفيًا

واجتماعيًّا وتطوَّرت، إلَّا أنها تظل طفلةً لقيطةً هذا الشعور المنغِّص الذي أدماها وأبكاها، ولطالما تهرَّبت منه ولا تريد أن تعايشه مرة أخرى، وقتها اقترحت «ريم» على «دينا» أن تسعى إلى لقاء شخص مسؤول له نفوذ وسُلطة، قد يساعدها لتحصل على وظيفة في وزارة الصحَّة، وبالفعل حادثت «دينا» هذا الرجل هاتفيًّا، فرحَّبَ بها بدورهِ، وطلب مِنها أن تحضر لزيارته مع «ريم» ليتعرَّف إليها عن قرب، ويرى كيف يمكن أن يمدَّ لها يد العُون، لم يمضِ يومان إلَّا وتجد «دينا» نفسها مع «ريم» في مزرعة يسودها مظهر الخواء والجدب، غريبة الشكل جدًّا، بها أشجار نخل متفرقة، غير أنها متهالكة لا تبدو عليها مظاهر الاهتمام أو المواظبة على ريِّها بانتظام، وكذلك كانت هناك ديوانيَّة مربعة مرتفعة عن سطح الأرض، ولم يكُن حالها أفضل من الزرع شبه الميت، حتى الحُجرة التي بخلف الديوانيَّة بلونها الأخضر الباهت كانت توحي بأنها آيلة للسقوط في أي لحظة، انتبهت «دينا» فجأة، بعد انشغالها للحظات

بتأمُّلها مزرعة العجائب المريبة، إلى أن «ريم» تستأذن في الانصراف والتغيُّب قليلًا لارتباطها بموعد، حينها قلقت «دينا» وهمَّت بالذهاب معها، لكن «ريم» طمأنتها بأنها لن تتغيَّب كثيرًا، وأنها لن تكاد تنتهي من تقديم نفسها للرجل الغامض وشرح ظروفها له، إلَّا وقد تكون هي قد أنهت مهمتها القصيرة وعادت.. بادر الرجل الغامض محاولًا طمأنتها كذلك لكي تمكث معهُ. وما إن رحلت «ريم» إلَّا ووجدت «دينا» الرجلَ، الذي لم تعرف اسمه أو منصبه حتى الآن، قد اقترب مِنها وجلس بِجوارها، كان نحيل الجسد قمحي اللون، له عينان غائرتان في وجهه، تحيط بهما هالات من سواد داكن، وتحت عينيه القادحتين يوجد شارب كثيف وعريض، وشفتان غليظتان داكنتا اللون، وفم نهم تفوح منه رائحة نتنة، متوسط الطول، لكنه يميل إلى القِصر، يرتدي ثوبًا أبيضَ وشِماغًا أحمر مثبتًا بِعقال أسود اللون، كان منظر الرجل العام مريبًا، ولا يبعث على الطمأنينة، فساور «دينا» بعض القلق

المشروع، لكنهُ بادر ضيفته قائلًا بغير مناسبة إن «ريم» قد قبضت المبلغ كاملًا. لم تستوعب الشابة ما قاله، ولم تفهم مقصده في بداية الأمر، وقالت إنها أتت إليه لكي يساعدها في الحصول على الوظيفة التي وعدتها بها صاحبتها، فهمهم ضاحكًا وقال:

- إن «ريم» لا تدعها مِن حركاتها أبدًا!

بدأ يقترب مِن «دينا» ليتحسَّس جسدها، لكنها انتصبت واقفةً وهي مرعوبة، وصاحت فيه:

- إن اقتربتَ مني سأصرخ، دعني أذهب، وإلا فسوف أفضحكَ في كل مكان.

هرعت تركض هاربةً، حتى خرجت مِن المزرعة المشبوهة والمفازة، وما إن رأت سيارة عابرة حتى استوقفتها، ألقت عنوانها مستأذنةً سائقها لكي يقلها إلى المنزل، وبدورهِ كان رجلًا مسنًّا طيب القلب فلبَّى رجاءها،

وأغاثها وهو يسألها كيف لفتاة مثلها تبدو من عائلة محترمة أن تأتي إلى مكان مشبوه كهذا؟

فهمت «دينا» من حديث السائق أن هذه المزرعة مكان مشبوه يمتلكه رجل سيئ السمعة..

جلست «دينا» تحت رشَّاش الماء الفاتر طويلًا، وقد امتلأت عيناها بالدموع؛ فقد كادت تصبح ضحيَّة وفريسة لشهوة ذئب مِمَّن يطلقون على أنفسهم رجالًا، وهم في الواقع أنصاف ذكور، تملَّكها الرعب وانتفض جسدها، ارتعدت من فكرة أنَّ من جعلتها صديقتها المقربة هي بائعة للهوى والبغاء، وليس هذا فقط، بل تجلب الفتيات أيضًا للرجال في مقابل مبالغ ماليَّة، حينها تيقَّنت من الأمر وعلمت مصدر الذهب والمجوهرات التي تملكها «ريم»، لكنها تعجبت من عملها الفاحش المُخزي، كيف لها أن تفعل ذلك وهي مِن أسرة عريقة وثريَّة؟

هجعت «دينا» بعد الموقف العصيب الذي تعرضت له، كانت فرحة بنجاتها، وسعيدة لأنها امتلكت القوة الكافية لتنقذ نفسها وتهرب في اللحظة المناسبة، نامت نومًا عميقًا طويلًا امتدَّ ساعات عدة، لم تنتبه منه إلَّا حين أيقظتها الخادمة، لتخبرها أن «ريم» على هاتف المنزل، غضبت غضبًا شديدًا، وطلبت من الخادمة أن تخبرها بألَّا تعاود الاتصال بها مرة أخرى أبدًا، وأن تنسى أنه كان لديها يومًا صديقة اسمها «دينا»، كانت «دينا» عازمة على قطع تلك العلاقة نهائيًّا، وكان مِن حسن حظها أنها عندما عادت مِن إجازتها السنويَّة لكي تتسلَّم العمل، وجدت «ريم» قد عادت إلى مقر عملها الأساسي البعيد عن الفرع الذي تعمل فيه هي، في تلك الأثناء كلمتها «أريـج»، لتُخبرها عن «هادي»، وقصة مساعدته إياها.

لم يكُن من «وهيبة» إلَّا السكوت حين رفضت ابنتها العريس الجديد، فما رأتهُ مِن «نواف» مِن ذُل وإهانة لـ«دينا»، ولها أيضًا، قد آلمها وكسر أمومتها في عين

«دينا»؛ لأنها هي مَن أجبرتها على الزواج به، لم تتوقَّع قبول كريمتها للأمر، بل اعتصمت «دينا» بصمتها وحزنها على ما أصابها، وقد زاد قهرها وحسرتها عندما وجدتها تُكابر، وتداري وجعها، لم تعاتبها أو تُحمِّلها ذنب طغيانها وتعسُّف قراراتها، حاولت أن تنشغل بعملها، وبمواصلة الحفاظ على ارتقائها في المناصب تباعًا، وإسهاماتها الدائمة في الجمعيَّات والمؤسَّسات الخيريَّة، وقد اتخذت قرارها بأن تدع لـ«دينا» مساحة من الحريَّة، حين طالبت بمواصلة تعليمها، والدراسة في المرحلة الجامعيَّة، وكذلك لم تمانع من دخولها في دورات تثقيفيَّة وتعليميَّة، أو الحصول على وظيفة تشغل بها نفسها في أوقات الفراغ، لعلَّها بذلك تسامحها على ما بدر منها في موضوع زواجها، أو تخليها عنها وتركها تعاني بين جدران دار الرعاية، كانت بذلك تقلِّل من توترها ومخاوفها بشأن اكتشاف «دينا» السر الذي طالما أخفته أمها عنها!

ظلَّت «وهيبة» تتساءل في قرارة نفسها عن سبب تخوفها مِن فكرة دخول «دينا» الجامعة، وحصولها على الشهادة العليا، لا تعلم إن كان ذلك خوفًا مِن أن يأتي يومٌ تتركها فيه «دينا» وترحل، أم خشية أن تدرك الفتاة طموحها، وتحقق لنفسها مستقبلًا باهرًا، فتنافس أمها ويقسو قلبها عليها، فهي لا تتمنى أن تكبر وتهرم وحدها في وحدة مظلمة، أو في قيظ مميت، أو شِتاء قارس، بِلا سند أو يد تستند إليها في أحلك الظروف، وأدق مراحل عمرها!

في المقابل، أرادت «دينا» أن تشغل وقتها وتطوِّر مِن ذاتها، فالتحقت بدورة متقدِّمة في مجال استخدام الكمبيوتر، وقد كان قرارها مصدر سعادة لها، وبخاصَّةٍ حين ألِفت المكان، وكوَّنت علاقات جديدة، ومِن أهمها علاقتها بـ«أميمة».

«أميمة» ابنة الثلاثين عامًا، ذات الشَّعر البُنِّي الباهت والمموَّج، والعينين العسليتين واسعتي الحدقتين، اللتين تختلجان فتثيران ناظرهما وتنشِّطان حواسه، تعلوهما أهداب كثيفة تزيدهما فتنةً، خصوصًا عندما تتحلَّى وتلبس الخِمار، صاحبة قوام ممشوق ولافت، خمريَّة اللون، وكثيرًا ما تشبهها صديقاتها بالممثلة المثيرة «أنجلينا جولي».. مِن أسرة لها قليلٌ من الحظوة والمال، ذلك ساعدها على أن يكون لها مشروعها الخاص، الذي اشتهر وذاع صيته في أرجاء المدينة: صالون تجميل وعناية بالمرأة وباحتياجاتها المختلفة، وبهِ قسم للخياطة والتطريز، كما كان لِخفة ظل «أميمة» ونشاطها الذي لا يتوقف، ومشاركتها في معظم المعارض والبازارات، فضلٌ في أن تنال القبول لدى مجتمعها، ما جعل مشروعها يتمتَّع بكثرة العملاء الدائمين.

في أحد الأيام، جاءت «أريـج» لزيارة «دينا» وحدثتها عن «هادي»، الموظف في إحدى الدوائر الحكوميَّة المهمَّة، التي مِن ضمن مهامها إيجاد حلول لمشكلات

المواطنين، وكيف أنهُ تطوَّع لمساعدتها في مشكلتها، وكان خيرَ عونٍ لها في وقت كانت في أمسّ الحاجة إلى أيدٍ تعُينها، وبسبب معاونته إياها شكرتهُ كثيرًا، وأبدت استعدادها لرد المعروف الذي صنعهُ لها في أي وقت، فما كان منهُ غير أن طلب منها أن تبحث لهُ عن زوجة مناسبة!

- حينها لم يخطر ببالي سواكِ؛ فأنت تعلمين مدى إعجابي بكِ، وكم تمنيتُكِ لأخي، وعلى الرغم من رفضك إياه فإنني ما زلتُ أكُنُّ لكِ كل الود والاحترام والتقدير، وأتمنى حقًّا أن توفَّقي في زِيجتكِ الثانية.

«هادي» شاب وسيم الملامح، أبيض البشرة، شعرهُ فاحم كسواد الليل، متوسط الطول، وقوامه ملائم جدًّا لشاب قد بلغ الثلاثين ربيعًا، منفصل ولديه طفلة في الرابعة مِن عُمرِها، لم ترث كثيرًا من ملامحه سوى بياض البشرة، لم يكمل تعليمه الجامعي، وكان له أحواله الغريبة، التي لم تُكتشف إلَّا بعد فوات الأوان.

لم تمضِ أيامٌ معدودة، إلَّا وتقدم «هادي» لخِطبة «دينا»، لم تكُن أمها «وهيبة» مسرورةً في بادئ الأمر، لكنها لم تكُن ترغب في أن تكرر الخطأ نفسه، فلزمت الصمت، وعندما أدركت ظروف «هادي» الماديَّة المتعسرة، قررت أن تكفِّر عن ذنبها الأول بحق ابنتها، وتحمَّلت جميع نفقات الزفاف ومصاريفه، بل وأكثر مِن ذلك، دفعت النصيب الأكبر من المال لتجديد الجناح الخاص بـ«دينا»، لتقيم فيه الأخيرة مع مَن اختارته بمحض إرادتها هذه المرة.. انشغلت الشابَّة بتجهيز نفسها للعُرس، فباتت تقضي جُلَّ وقتها بين الأسواق، وبين تبادُل أحاديث العشق مثل المراهقين المفتونين، التي قد تمتد لساعاتٍ طوال بينها وبين «هادي» من بداية وقت البهرة حتى يشقشق عليهما صوت نسائم الصباح ويغمرهما بنسيمه العليل.

كان لـ«أميمة» الفضل الأكبر في الاستعدادات التي تنهمك فيها «دينا»، ولازمتها معظم الأوقات، وبخاصَّةٍ عندما كانت الأخيرة تغشى المحلات التجارية مرارًا لتبحث عن القماش المناسب لتفصل منه فستان عرسها الأبيض، ولم تكُن تتذمَّر من طول مدة البروفات، التي كانت تجرِّب فيها أدوات التجميل على ملامح «دينا» الفاتنة في صالونها الخاص، كان يُشهَد لـ«أميمة» بتميُّزها وتفوُّقها على منافسيها في تخصُّصها؛ فلمساتها في وضع المكياج تترك وهجًا وإشراقًا ينعكسان على المرايا، وعلى ضوء كاميرات التصوير، خصوصًا عندما كانت الفتيات متواضعات الجمال يخرجن من تحت أيديها وقد تحوَّلن إلى فتنة لافتة بكل مقاييس الإغراء، وجذبن أنظار كل مَن رآهن!

بعد مُضيِّ ثلاثة أشهر من الاستعدادات، تم الزفاف، ولكن هذه المرة كانت مختلفة تمامًا بالنسبة لـ«دينا» التي تألَّقت بجمالها، وامتلأت بأحاسيس السعادة والحضور والفرح؛ فهذا زفافها الذي اختارته عن قناعة تامَّة، وهذا

زوجها الذي لم تُجبَر على الزواج به، فراحت تخطو الهوينى برشاقة في أثناء زفافها بين الحضور من المدعوين والأصدقاء، وأصابعها متشابكة مع أصابع «هادي»، كانت تنظر إلى أهلها وصديقاتها بفرحة وثقة، معتدَّة بنفسها وبما تملكه من جمال ينعكس أثره في نظرات المدعوين المعجبة أو الحاسدة، لم تنتهِ ليلتها إلَّا بعد أن انغمست في فرحها، فرقصت وتغنَّجت وتمايلت على أغاني الحب والغرام، عاقدة يديها حول عنق حبيبها، متأملةً نظرات عينيه التي تعكس ما يملأ قلبه مِن إثارة وتلهف على الرحيل إلى مضجعهما، ليعبِّر لها عن شدة شوقه لها وحبه إياها، وهو بدورهِ يحيط خصرها بيديه، جاذبًا إياها إلى حِضنهِ بين حين وآخر.

وجاءت لحظة التقليد المرح، فأولت العروس السعيدة ظهرها للضيوف، متهيِّئة لإلقاء باقة الورد خلفها، لترى مَن سعيدة الحظ التي ستلتقطها، معلنةً بذلك حُسنَ طالعها والتنبُّؤ لها بزواجٍ قريب.. كانت «دينا» ممتلئة برغبة

وتطلع لأن تكون «أميمة» هي سعيدة الحظ، وبالفعل، فما كادت تستدير وتنظر مستطلعةً شخصيَّة الفائزة، إلَّا ورأت خلتها الوفية تضم باقة الورد إلى صدرها، ضاحكةً كطفلٍ يزهو مرحًا تحت زخات المطر الودود، وفي لمح البصر احتضنت كلٌّ منهما الأخرى، ودموع الفرح تنساب مِن عيونهما، حينها مالت «أميمة» على أُذن «دينا» لتهمس لها في مرح:

- الآن قد زُجَّ بكِ في عرين الزوجيَّة!

فنظرت «دينا» إلى «هادي» نظرة عشق وهيام، ورأته في حالة سعادة وحبور.

صعدت «دينا» مع زوجها الجديد إلى سيارة الزفاف، التي اختارتها بِعناية لتخطف الأنظار بلونها الفوشيا، وزينتها من أشرطة الساتان الفضيَّة، والقلوب الحمراء المتناثرة فوق زجاج مقدمة السيارة، كانت «أميمة» ترافقهما لتلتقط الصور، ولكي تساعد صديقتها، نجمة اليوم، على رفع أطراف الفستان عن الأرض، ولتزفها إلى

آخر محطة لها على عتبة جناح العرائس بالفندق، وكانت قد وضعت بعض اللمسات في عش العروسين لتفاجئ صديقتها في ليلتها الكبيرة، فما إن ولجت «دينا» إلى الجناح إلَّا وشعرت بأنها في جنة فيحاء، فالأرض امتلأت بالورد بألوانه الوردية والحمراء، التي أحاطت بأطراف سجاد الجناح الأحمر الفاخر، ونجوم تناثرت متلألئة لتكون ممشى أو طريقًا معبدًا بالنجوم، ومن حوله أعمدة خشبيَّة مطليَّة بلون أبيض ساطع، ليعكس الإضاءة الباهرة والألوان المتألِّقة المنعكسة عليه، وكان يعلو الأعمدة شموعٌ تتضوع منها روائح اللافندر، وتزيِّنها أشرطة ملونة تحيط بها عند الوسط، تفوح منها رائحة الزهور القويَّة المنعشة، وانتهى بِها الطريق إلى ملاذها الذي لطالما تاق بِها الشوق أن يكون مستقرها مع العاشق الولهان؛ حيث الإضاءة الخافتة، والقناديل المُشعة والروائح العطِرة المثيرة، ومضجعها المغطَّى بالغطاء الأبيض المزركش بتطريزات من الكريستال وفصوص «سواروفسكي».

التقيا على سفحِ الهِضاب، تطفو حولهما غيوم لهفة الوِصال، وطفقا يتبادلان عناقًا حارًّا تسودهُ ترانيم الاشتياق، وانقضى ليلهما محملًا باللهفة والشغف، حتى ألمَّ بِهما نسيم الصباح، ومن غير وعي استسلما للذيذ النوم والرقاد، وجسداهما متعانقان ومتلاصقان.

في منامها، كان مزيدٌ من السعادة ينتظرها، فظلَّت «دينا» تركض مرتديةً ثوب نومها الحريري الأبيض الشفاف، وضحكاتها تجلجل في كل مكان، ولم تتوقف إلَّا عندما وجدت نفسها على ضفاف نهرٍ مياهُه عذبة تترقرق شفافة وديعة على أصابع قدميها، وقد غمرتها قشعريرة جرَّاء نسمة هواء محمَّلة ببرودة جعلت وجنتيها تحمران، ويغشى الخشوع ذهنها، بينما راح شعرها الغجري يتطاير حولها، مستجيبًا لنسمات الهواء القويَّة المحببة، وفجأة انتبهت على يد تحيط بخصرها، وانثنى عريسها نحوها ليغمر عنقها بالقبلات الدافئة، كم كانت سعيدة وتمنَّت ألَّا ينقطع بينهما العناق، وفي تلك اللحظة كانت تفتح عينيها

لتجد «هادي» متربعًا على أريكة الجناح المريحة، ابتسم لها قائلًا:

- قد طال حُلمكِ فطال منامكِ.

ابتسمت خجلة وقالت بحياء:

- اعذرني، لم أشعر بنفسي واستغرقني النوم، ولكن دعنا نستعد لتناول وجبة الإفطار.

ضحك «هادي» متهللًا وقال بمرح وسعادة:

- تقصدين يا عزيزتي وجبة العشاء!

مرت الأيام والشهور، رغيدة سعيدة، كان «هادي» زوجًا مثاليًّا، مسرفًا في حبه وشوقه الدائم لها، وازداد قربهما مع توالي الأيام، اكتشفا كثيرًا من نقاط التشابه والاتفاق بينهما، فتعاظمت المودَّة، وما لبث الحب الذي شهدت عليه جدران بيتهما، وأروقة الأماكن التي غشياها معًا، أن استعلن في شكل ثمرة منتظرة، ابنٍ من عاشقان لم يفرقهم

عن ساعات الغرام إلا لحظات معاناة مشقة الحياة ، غمرت «دينا» سعادة حرَّة صافية، فقد تحقَّق حلمها في تذوُّق متعة الأمومة مرة ثانية، كانت تجربتها الأولى قد أصبحت ذكرى بعيدة، تحاول أن تتناساها لتعيش الواقع بكل ما فيه من مميزات، غير أن ما مرَّت به سابقًا قد غيَّرها من الداخل ومن الخارج، فأرادت حياة مختلفة، وتجارب جديدة ومختلفة أيضًا؛ لذلك بقيت تحلم بمولودها الجديد، وكانت تبتهل إلى الله سرًّا بأن تُرزق بفتاة، فقد أُرهقت مِن شظف العيش وصعوبة الحياة، وتريد أن تحيا النعيم مع صغيرتها لتحس بها؛ فالأم والابنة خُلقتا لتكمل إحداهما الأخرى، غياب ابنها «سلطان» عن أحضانها قد سلبها الإحساس بالأمومة مؤقتًا، وقد آلمها ذلك الشعور بالنقص والافتقاد جدًّا، مضت الأيام والأسابيع في سعادة تامَّة، غير أن الأمور دائمًا تجري بتدبير وتقدير لا نعلمهما إلَّا بعد فوات الأوان.

تعرُّفها السريـع إلى «هادي» وضعفها أمام كلامه الرقيق الذي كان يلقيه ببذخ على أذنيها ولهفتها على الارتباط لتثبت لنفسها وللجميع أنها لم تفشل مع «نواف» إلَّا بسبب سوء تصرفاته وبشاعة طباعه، كل ذلك جعلها تدخل في تجرِبة زواجها بـ«هادي» دون أن تلحظ بعض الأمور الخطيرة التي بدأت تعرفها متأخرا جدًّا..

فبعد مدة مِن الزمن، لاحظت «دينا» أن «هادي» بدأ يتنصَّل من مسؤولياته، ويتهرَّب من المشاركة في النفقات، وأخذت معاملتهُ تتغير شيئًا فشيئًا، وبخاصَّةٍ حين أزف موعد الولادة، وكانت كلما أرادت أن تعرف الأسباب وراء ذلك التحول الغريب وتسأله، يتهرب من الإجابة، مكتفيًا بالشكوى مِن عناء العمل، ويستطرد مواصلًا سرده للظروف وضيق الحال. لم تقتنع الزوجة بكلامهِ، وعلى الأخص حين راح ينكث بوعودهِ الطيبة بأن يكون المأوى ومصدر الأمان لها، بدأ إحساسها تخالطه الظنون السيئة مِن تلك الجفوة المفاجئة، واستنكفت الاستسلام مرة

أخرى، فلن ترضخ وتسمح بإعادة السيناريو نفسه، وظلَّ هو يحيِّرها بمواقفه وتبدُّله الكبير!

قبل ولادتها بعدة أسابيع، لاحظت «دينا» على زوجها مكوثه مددًا طويلة على الهاتف مستخفيًا، كان ينزوي في أركان المنزل البعيدة ويختار الزوايا غير المطروقة، باغتتهُ ذات مرة وحدَّقت فيه شزرًا، فأظهر ابتسامة باهتة عنوانها المُخاتلة والتزلُّف.

مرَّت الأيام والأسابيع ثِقالًا على قلب «دينا»، تنتظر ساعة وصول مَن اتخذتها خليلة وحبيبة، مِن قبل حتى أن تراها، كانت تتمشَّى الهوينى وتتحرَّك كثيرًا لتسهل عملية الولادة، وهي تتجوَّل في الأسواق ذهابًا وإيابًا، وكلما رأت فستانًا أو منامة أو لهَّاية أطفال تروقها اشترتها، لم تترك مكانًا في غرفة الضيف الجديد إلَّا وقد ملأته بالزينة والألعاب، لدرجة أنها اشترت كذلك جميع أدوات الرسم والتلوين، أملًا في أن تدخل يومًا على ابنتها فتراها منهمكة في رسم الجبال والطبيعة الخلابة، كانت الآمال تطيح

برأسها، ومرت أيامها مفعمة بالترقُّب والانتظار والصبر الطويل، وكذلك بالمخاوف وصنوف القلق!

وذات ليلة هادئة، وعلى حين غِرَّة، دوَّى صياح «دينا» وصرخاتها في جميع أنحاء المنزل، مؤذنة بساعة وصول مَن نبض لها القلب عشقًا، أُخِذت الشابة الماخضة إلى المستشفى، ولم تكَد تمر ساعات إلَّا وحلت أنسام رحمة الله، ولم تشعر الأم بنفسها إلَّا وفي أحضانها طفلتها «يارا»، امتلأت عيناها بدموع الفرح والامتنان، وودَّت لو استطاعت أن تسجد لله شكرًا، لولا آلامها وتهالكها مِن جرَّاء الولادة، تأمَّلت طفلتُها مليًّا، فتلك هي بنفسها: العينان أنفسهما ورسمة الشفاه ذاتها.. استنشقت عبيرها، ومضت تستكشف أصابع قدمها، وحين استبدَّ بها الوجد والفرح ضمتها إليها، ضمَّةَ لهفة واشتياق لغائب طال احتجابه، ولحبيبٍ كان يبعث إليها برسائل الحب والقرب والألفة مِن داخل أحشائها، ظلَّت ترنو إلى وجهها وتتسمَّع صوتها الخافت، ويخفق فؤادها عندما تنفرج شفتاها

الصغيرتان عن ابتسامة واسعة، وتلامس شفتيها الورديتين غير منتبهة للحضور الملتفين من حولها: أمها «وهيبة» و«أميمة» و«أمل» و«أريج» و«إيناس»، كُنَّ كلهن حولها مبتسمات والسعادة تغمر وجوههن، يحمدن الله على سلامتها، داعيات أن تقوم بصحة وعافية، وأن ترى ابنتها ملكة جمال الكون، وأن تكون ذات علم ودين وخُلق.. بعد مدة تنبَّهت «دينا» إلى عدم وجود «هادي» بجوارها، فاشتدَّ حنقها وقد ظهر ذلك على ملامحها، على الرغم من أن غرفتها كانت تعجُّ بالضيوف، وظلَّت تبحث عنه بعينيها، حتى فتحت إحدى الزائرات باب الغرفة عرضًا، فرأته قائمًا في الخارج، وخُيِّل إليها أنه مشغول بملاطفة واحدة من العاملات في المستشفى، أخفت انزعاجها بداخلها، وابتسمت للموجودات، وفي قلبها وعقلها ألمٌ وألف سؤال معلَّق، دقائق وانفردت بـ«يارا»، عقب رحيل جميع الضيوف والمهنئين، وراحت تحدِّثها وكأنَّها واعية مدركة، لكن «هادي» دخل الغرفة ليقاطع أجمل لحظاتها،

اختار مقعدًا ليجلس، وكانت نظرات عينيه غامضة ومبهمة، ولم يكُن يبالي بوجودِ زوجته، أو بطفلتهِ التي لم تزَل في الساعات الأولى من عمرها.

لم تكُن «دينا» تقوى على الحراك في الأسبوع الأول بعد خروجها من المستشفى؛ فعملية الولادة قد أجهدتها وأنهكت جسدها، لكنها كُلَّما اتكأت على وِسادتُها تجتاحها أكثر الأفكار شؤمًا وإثارةً للمخاوف، فقررت أن تُحمل «هادي» جزءًا من مسؤوليَّاته، واتخذت قرارها عازمةً على أن تنتقل مِن بيت «وهيبة» إلى منزل يضمها مع زوجها «هادي» وطفلتها «يارا».. في بادئ الأمر، أبى «هادي» ورفض محتالًا بجميع الحجج، لكنه في نهاية المطاف ومع شدة إصرار زوجته رضخ لقرارها. كانت «دينا» تتوجَّس خيفة مِن سوء ظنونها وشر تخيلاتها؛ فالخيانة بالنسبة إليها تعني إعدامًا لذاك الحُب الذي استبدَّ بمشاعرها وسلبها فِكرها، الحب الذي أنساها مُعاناتها والحياة العسيرة التي كانت تعيشها وتتعذَّب في ظلها، لكن رائحة

ثياب «هادي» التي تفوح منها العطور الصارخة، عند عودتهِ كل مساء، واعتزاله في صالون الضيوف ممضيًا الساعات على هاتف المنزل، وأصوات الهمسات والضحكات، ذكَّرتها بأيامها الأولى معهُ، حينها أيقنت أنه عاد إلى مراهقته وغرامه بتبادُل الحب والهيام، لكن هذه المرة مع غيرها، بقيت في حجرة نومِها في شقتها الجديدة، ضامة «يارا» إلى صدرها تسقيها مِن حليب ثدييها، كانت قد اشتاقت فعلًا إلى تلك الأحاسيس المختلفة؛ فهي خُلقت لتكون أمًّا، وليست مجرد امرأة تعيش لنفسها بلا معنى أو هدف، ارتحلت بذاكرتها إلى الوراء، وتذكرت «أحمد»، حب زمن الطيش وخذلانه إياها، وتذكرت «نواف» وآثار الضرب التي تركها على جسدها، والآلام التي خلَّفها ميراثًا وذكرى مريرة مِن بعده، والآن يأتي «هادي» ومعاناتها بخله وخيانته، لا تعلم سبب سوء طالعها وشؤم بختها، أيُعقل أن يكون كل ذلك بسبب المشعوذة العجوز، التي أخذتها إليها «وهيبة» حينما كانت طفلة لا تعي، لتقرأ

عليها بعض الترانيم والطلاسم غير المفهومة، التي لم تستوعب ضررها، أو تدرك فداحة ما تنطوي عليه من شر ودنس، إلَّا عندما ذهبت إلى قريبتها، قبيل زواجها بـ«نواف» ومحاولة الأخيرة المرتجلة لتفك عنها ذلك العمل السفلي الضار؟ أيُعقل أن يكون الجان قد تلبسها، وأنه أتخذ مِن جسدها مرتعًا ومستقرًّا، وأن أحد عُتاتهم قد تعشَّقها، ولا يريد لغيرِه أن يمسها؟

- آه، كم تمنيت لو أستعين برجل مِن رِجال «بني سهم» ليقتل المارد، أو ببعض سحرتهم ليخرجوه من جسدي، حتى أنعم بحياتي، التي لا أكاد أهنأ بها قليلًا إلَّا ويحوم مِن حولي النحس والشؤم!

وقفتْ حائرة، وهي تهز «يارا» على ذراعيها لكي تهدأ ويسكت صراخها المستمر، وراحت تفكر مليًّا وأصدرت أخيرًا حكمها، بعد أن توغَّلت في سراديب الماضي وتذكَّرت كل ما حل بها وأصابها فيه، بأنه ليس أمامها سوى الرضوخ

لما تفرضه عليها تلك الحياة، وعليها أن تركِّز فقط في مستقبلِها، وفي تربية طفلتها «يارا»!

مرت مدة عصفت فيها الشكوك والآلام بعقل «دينا» وقلبها، لم يفلح انشغالها برضيعتها في صرف أنظارها تمامًا عن زوجها وتبدُّله الكبير، وتغيُّر أحواله الذي أصبح أوضح من أن تنكره، أو تتظاهر بأنها لا تلاحظه.

وحصل ما لا تُحمد عُقباه، في إحدى الليالي سافرت «دينا» وابنتها «يارا» مع «وهيبة» إلى مدينة أخرى لتحضر مناسبة عائلية دُعين إليها، وفي اليوم التالي جاءها اتصال هاتفي مِن جارتها «عبير»، التي كانت تزورها مِن حين إلى آخر، وتجلب معها طبيخها اللذيذ من صنوف المأكولات الشاميَّة، فالجارة الودود تنتمي إلى بِلاد الياسمين، بِلاد نهر برَدى، حيث العلم والنور والمودَّة، وكانت تتبادل مع «دينا» محبَّة صافية، لكن هذه المحادثة قلبت حياة الأخيرة رأسًا على عقب، ولم تكَد تفتح معها الأمر حتى تملَّك «دينا» شيطان، جعل حواسها كلها تنتبه

وتتحفَّز في جنون، حيث أنبأتها «عبير» بأنها سمعت صوت باب شقتها هي و«هادي» يُفتح، ورأتها تدخل دون ابنتها «يارا»، ورائحة عطرها تملأ الأرجاء، وشرحت لها كيف دُهشت لأنها عادت بمفردها، تاركة رضيعتها مع جدتها، مثلما كانت الجارة الطيبة تظن وتعتقد، لم تستطِع «دينا» أن تتمالك أعصابها أو تعتصم بالصبر، فهرعت تحجز لنفسها مقعدًا على أول طائرة عائدة إلى مدينتها، وحيدةً دون أمها وطفلتها، لم تمضِ ساعات معدودة إلَّا وكانت الزوجة، التي تعصف بها الشكوك والمخاوف، تفتح باب شقتها وتدلف داخلًا، كان أول ما صدمها هو رؤيتها شالًا بني اللون، وعباءة مطرزة ملقاة على أريكة في ردهة الاستقبال، وقفت حائرة ومضطربة قليلًا، فهي لا تريد أن تصدق وساوسها، ولا أن يخيب رجاؤها في من أحسنت الظن بهم، لكن هذا الرداء لم يكُن غريبًا عليها، بل على العكس، كان معتادًا ومألوفًا جدًّا، مرَّت عليها لحظات مِن الخوف والحسرة والقهر، وبعد تردُّد اتجهت لتفتح باب

غرفة نومِها، وهناك كانت المرآة المواجهة لباب الحجرة تعكس منظر مَن يرقد على السرير، فرأت «دينا» فتاة قد أخفت أغطية الفراش جسدها بالكامل، ولكن هيهات أن تنجح تلك الحيلة الرخيصة في منعها من التعرُّف إليها، كانت المرأة، التي تحتل سريرها، هي صديقتها، لكن أي صديقة منهنَّ؟ من ائتمنتها على أسرارها، وفتحت لها قلبها، ومن رافقتها في كل خطواتها، حتى في أدق التفاصيل كانت تشاركها وتعيد عليها الرأي، هي مَن طرَّزت لها فستان فرحها بنفسها، وهي مَن تمنَّت من أعماق قلبها أن تكون باقة الزفاف، حين ألقتها نحو المدعوين، من نصيبها، بشرى حسنة لطالعها بأن تكون العروس التالية ذات الحظ المجدود، كانت المرأة التي دنَّست عش «دينا» المقهورة وفراشها هي «أميمة» بذاتها.. ولا أحد سواها!

قلقت «وهيبة» عندما علمت بعودة «دينا» إلى بيتها دون سابق إنذار، تاركة «يارا» الصغيرة مع المربية، وزاد اضطرابها عندما اتصلت على هاتف ابنتها المحمول كثيرًا،

ولكنها لم تلقَ أي رد، فما كان منها سوى أن بادرت هي الأخرى بالرجوع إلى بلدتها، و«يارا» بين ذراعيها، متخلفة عن حضور زفاف قريبتها. كانت تحس بقلق «دينا» الزائد مؤخرًا، وتلاحظ شرودها الدائم، وكان أعظم ما تخشاه أن يأخذ العذاب بأنفاسها من جديد، ويتعكَّر صفو حياتها الجديدة، فلم تكُن نيران الماضي أو معاناته قد هدأت أو خمدت بعد، لم تنسَ تلك النظرة المتألمة التي لاحت في عيني «دينا» عندما لم تجد «هادي» بجوارها في أهم يوم في حياتهما، يوم استقبال أميرة بيتهما، وسر حبل الوصال، الذي كان يجب أن يربطهما معًا بأوثق العرى وأشدها.

بقيت الزوجة الشابة واجمةً ساكنة، لم تستوعب ما رأتهُ عيناها، وظلَّت موزعة النفس بين منظر مرعب تشاهده الآن، وبين آلام طعنة خنجر كأنَّه مغروس بقلبها.. غادرت الغرفة مسرعة، وقلبها يخفق بعنف، متجهةً إلى حجرة استقبال الضيوف، ولحق بها «هادي» مضطربًا مطالبًا إياها بالهدوء، كان يحلم بفرصة يشرح فيها موقفهُ

الحقير، لكن «دينا» لم تترك له مجالًا أو فسحة من الوقت ليبرر أو يعتذر، فأوصدت الباب في وجهه معلنة بذلك سخطَها، وشرعت توبِّخه وتوبِّخ نفسها على حظها العاثر دومًا، كان صوتها مرتفعًا ومسموعًا له، وكالت له من هدير أعاصير الغضب ما لا يوصف، ولا تعبر عنه الكلمات، وعلى غير وعيٍ منها بدأت بتحطيم جميع مقتنيات الغرفة؛ فأول ما لحظته عيناها المتقدتان غضبًا كان طاولة المجلس الزجاجيَّة، ذات الأرجل المنحوتة مِن خشب الزان، فأقدمت على تكسيرها، ولم يكُن نصيب الأباجورة الفرنسيَّة الثمينة أفضل منها، فتهشَّمت على أرضيَّة الصالون وتناثرت أجزاؤها، حتى النجف الفاخر، الذي أصرَّت على أن تشتريه من مصانع كريستال عصفور المصريَّة، تحطَّم إلى قطع صغيرة، وأجزاء الكريستال اللامعة أصبحت هشيمًا، ومسكاتها الحديديَّة، المطليَّة بالذهب، قد اعوجَّت من ارتطامها بالأرض وتحطَّمت، ومِن خلف الباب المغلق تعالى صياح زوجها مطالبًا بأن

تهدأ وتستمع إليه، لكنها طالبته بأن يطرد هذه الماجنة فورًا؛ فقد دنَّس بيته، وجعل منه ماخورًا يستقبل فيه عاهرته الحقيرة.. وعندما فتحت الباب أخيرًا حدجتهُ بنظرات احتقار وغضب شديد، قائلةً له بأسى واشمئزاز:

- لقد جعلت من نفسي سبيَّة لك وأنا أنثى حُرة، لم تشترِني مِن سوق العبيد، ولم تعتقني بمالك، وتحملت بخلك وقرفك وإهمالك، فعلتُ ذلك لظنِّي أنك رجل وأنك ستقدِّر كل هذا، إن كنت تمتلك شيئًا قليلًا من النخوة فطلِّقني!

رقَّ قلب «وهيبة»، على الرغم مِمَّا يملؤه من عتاب وقلق وتساؤل، حين رأت «دينا» عند باب منزلها بعد منتصف الليل، مجرجرةً كسرتها ومذلتها، وعيناها تملؤهما الدموع، ودون أي تمهيد أو مقدمات ارتمت في حضنها، لكن الأم أصابها الرعب والذعر عندما رأت يد «دينا» وقد أغرقها الدم وأُثخنت بالجراح، فسألتها فزعة:

- ماذا أصابكِ؟ وما هذا الدم الذي يلوث يدكِ؟

أجابتها الثانية بصوت لا يكاد يُسمع، وقد أصابها ما أصابها:

- لا تخشي شيئًا، فلم أقتلهُ، لكني قتلت قلبي الذي تدلَّه في عشق من لا يستحق.

وقبل أن تفقد الوعي همست بصوت واهن:

- ولشد ما يُعمي الحرمانُ العيونَ ساعة الاختيار!

قرعت «عفاف» باب غرفة نوم «دينا» بخفَّة، خوفًا من أن تستيقظ «يارا»، وفتحت الباب ببطء لترى «دينا» مطرقة واجمة، كانت على وضعها المحزن الذي دام أسابيع كثيرة، تبقى كما هي بِلا حِراك، ودون أن تنبس بكلمة واحدة، أو تسد جوع بطنها بأي لقمة، فهزل جسدها من الحزن والقهر، ولم تكُن تفعل سوى التأمُّل في ملامح «يارا» وإرضاعها.. دخلت «عفاف» لتضع وجبة الإفطار أمام «دينا» مثل كل يوم، ولكن هذه المرة أصرَّت على ألَّا تخرج

حاملة الطعام كما هو من غير أن يُمس، فـ«دينا» بالنسبة لـ«عفاف» الابنة التي لم تحملها في أحشائها، لكنها فتاتها التي حملت همها دومًا، وربَّتها واعتنت بها، وجهَّزت لها الطعام منذُ نعومة أظافرها، ولطالما مشَّطت لها شعرها الجميل وسرَّحته، وسهرت بجوارها الليالي الطويلة عند مرضها، هتفت «عفاف» متوسلة:

- «دينا» حبيبتي، أرجوكِ، لا تفعلي في نفسك كل هذا؛ فالحياة لا بُدَّ من أن تستمر، ويجب أن تنتبهي لصحتك، وتتغذّي جيدًا لكي تستطيعي الاستمرار، ولكي تكوني قادرة على تربية طفلتك التي لطالما حلمتِ بِها.

لكن «دينا» لم تكُن ترى أو تسمع شيئًا، كانت مغمورة في عتمة الحسرة، وألم اضطرارها لكتمان صراخها وأنينها، الذي يدوِّي كل يوم مع بزوغ الفجر، وحتى تبزغ الشمس، وتستقبل نهارًا جديدًا محملًا بالآلام، والذكريات المفجعة المروعة.

(٥)

بكل هدوء وبعد تنحية مشاعرها، وبعد أن انتهت ثورة الشك والهلع التي كادت تؤدي إلى هلاك نفسها وإفناء ثقتها بذاتها، استيقظت «دينا» من وحل أفكارها، الذي أفسده المقربين وكثرة المِحَن، والتي رمت بها في غيابات الجُبِّ لتعاين الرعب والشياطين الكامنة في الأعماق، واستطاعت أن تبيد مخاوفها، وتتغلَّب على أيام عصيبة عاشتها، وعادت مرة أخرى ترى أمامها بصيصًا مشرقًا من نور الأمل، الذي كاد يسلبه منها ذلك الذي يُدعى «هادي»، حين تجسَّد أمامها في صورة الحب الأبدي الذي لا نهاية له، مع أنه للأسف كان بعيدًا كل البعد عن المشاعر الصادقة، ولم يعرف سوى المخاتلة والخداع، وارتداء أكثر الأقنعة زيفًا

وبُعدًا عن حقيقته الشائنة؛ فهو النموذج الأمثل للشهوة الحيوانيَّة، صورة ملطخة بألوان صارخة ومتنافرة لكائن نصف بشري، يتشكَّل شطره من طبيعة سفليَّة ودونيَّة، لم تجرؤ «دينا» على تشبيهه بالحيوان؛ إذ إن بعض الحيوانات لديها من خصال الوفاء والإخلاص ما لم ينعم به أشباه الرجال وخليلات الشيطان اللائي لا يعرفن سوى الغدر والخسة، ونهش أيدي أقرب الناس إليهن، أما ذلك الرجل فلم يكُن لديه حائل بين تفكيره المتدني ونفسه الخسيسة، مجرد «أنا» متضخمة، طبيعة قاسية للأنانية وحب الذات، لا سقف ولا حدود لما يمكن أن يُقدم عليه في سبيل إشباع شهواته وتحقيق نزواته!

مضت «دينا» إلى الأمام، انطلق قطار الحياة بها صاخبًا ناشرًا الشرر، كانت في مقصورته الأخيرة لاجئة هاربة، لكن صوت الضجيج واحتكاك العجلات المهرولة بالقضبان كان مسموعًا لها، تطلَّعت أمامها ملقيةً وراء ظهرها بمخاوف المستقبل المجهول التي تجاهلتها، ولم تحفل بتبايُن الآراء

حول قصة الخيانة والغدر، وصيحات مَن يناشدون للصفح ومنح فرصة أخرى للمخطئين، تلك الآراء التي باتت جزءًا روتينيًّا من حياتها، لم تكُن تحفل بها، أو تحس لأنصار التسامح طعمًا أو نكهة، لكن استماعها إلى نقاشاتهم كان يذكي آلامها، وحسرتها على ما فرطت فيه من أيام عمرها، وكانت كبرياؤها قد زادتها خبالًا لأنها أصرَّت على أن تداوي نفسها بنفسها، لم تطلب استشارة من طبيب، أو تتقبَّل مساعدة أو مؤازرة من حبيب أو قريب، اختارت أن تلعق جروحها بنفسها، قامعةً صرخاتها وأنينها، تنصَّلت من حقها الطبيعي في أن تنهار وتتألَّم وتشتكي، كبتت غضبها وتظاهرت بقوة لا تملك منها، في الحقيقة، دانقًا، ما أطمع فيها المنافقين ونهَّازي الفرص، تغرَّبت عن ذاتها، حتى لم تعُد تعرف إن كانت لا تزال هي نفسها «دينا»، التي عرفتها دائمًا، أم أن شخصيتها الجديدة مجرد قناع زائف، رداء قشيب تتزيَّن به لتنال إعجاب الآخرين، وتحوز إكبارهم!

في حمئة حاجتها إلى معين ونصير ونطاسيٍّ يطبِّب آلامها، خفَّ إلى مساعدتها كثيرون من أصدقائها الجدد، والقدامى أيضًا، هؤلاء الذين غابوا عن أفق حياتها لفترة، عادوا يظهرون بقوة، يعلنون أنهم موجودون، وأنهم لا يزالون على العهد، فشقَّت رفيقةٌ قديمةٌ حُجُبَ الغياب والنسيان، مظهرةً محبتها المعتقة، التي أهملت طويلًا في الجرار المختومة، جاءت «ميساء»، انتقل صوتها المشفق عبر الهاتف، لتلحَّ عليها بالسفر معها، لتغيِّر أجواء الكآبة وتستنشق نسائم الحياة الطيبة، كانت «دينا» عازفة أول الأمر، لكن الإلحاح والمناشدات من الأم المشفقة، ومن «عفاف»، وعيني «يارا» الصغيرة التي كانت تنطق دون كلام، تستصرخ أمها مشفقة متوسلة «أن كوني بخير وتعافي من أجلي»، حسمت كل هذا التردد الطويل، تمت استعدادات السفر بسرعة، ووجدت «دينا» نفسها ترافق «ميساء» في رحلةٍ لم تكُن تعرف بالضبط ماذا يخبئ لها القدر فيها، وبعد تجشُّم المتاعب، وعناء السفر بحمل

ثقيل مكوَّن من عدة حقائب، تتكدَّس داخلها قطع الملابس وأدوات المكياج وأزواج من الأحذية لا حصر لها ولا عدد، وجدت الشابة التي تتمسَّك بأهداب الحياة بشق الأنفس نفسها في أحد منتجعات الدرة، القائمة على سواحل البحر الأحمر، كان ثَمَّةَ حجزٌ بأسمائهما، وشروط الإقامة مميزة، حزمة فاخرة من أسباب المتعة والرفاهية في جناحها، وعندما دلفت إليه للمرة الأولى، أثارها منظر البحر المصطخب من خلف الزجاج، فراحت تتأمَّله مترددة أن تخطو لتطأ بقدمها أرضيَّة الشرفة الرخاميَّة، لكنها ما إن دخلت الشرفة، ولامست أناملها إطار الألومنيوم ذا اللون الفضي بحذر، حتى اتكأت بخصرها فوق ذلك الحاجز الذي يمنعها من السقوط، وبدأت تأخذ أنفاسًا عميقة، مردفة إياها بزفير حار، وكأنَّه محمَّل بالنيران، كان يخرج من صدرها، بركان الألم الذي كبتته طويلًا داخلها ها هو يتنفس مُخرِجًا أخبث مكنوناته،

ومرسلًا اللهب والأدخنة إلى الخارج، لقد تحرَّرت في تلك اللحظة وحُلَّ قيدها!

بعد أن سبرت غور الماء، وغزت الأمواج بعينيها، وتأمَّلت عنفوان البحر مستندةً إلى حاجزها، تداعبها زخَّات من سحِّ المطر، انتفض جسدها برعشة تلقي ما بداخلها من عَنت ووجع، لقد فاض سم روحها المكتوم وانتثر متحررًا من بدنها، ومخاوفها من المجهول اجتثتها، متخلصةً من وساوسها وشكها في كل مَن حولها، وبينما هي على هذه الحال انتفضت فجأة، عندما سمعت دبيب خُطى من خلفها، وقبل أن تستدير وجدت يدَي «ميساء» موضوعتين كعِصابة على عينيها من الخلف، لتهمس في أُذنها قائلة:

- فلندع الماضي خلفنا لكيلا يهرم حاضرنا، ولنستعد للمرح اليوم!

التفَّت إليها «دينا» وهي ترسم ابتسامة باهتة ولم تنبس ببنت شفة، لم تبقَ الثانية طويلًا؛ إذ كان عليها ترتيب خزانتها وفرز ما جلبته معها من أغراض، وبعد أن غادرت «ميساء» الغرفة، شرعت «دينا» بتفريغ ما بداخل حقائبها التي اكتظت بالمهمات وكأنَّها مهاجرة إلى عالم آخر خالٍ تمامًا.. وعندما انتهت، جثت على ركبتيها تتأمَّل الفساتين التي جلبتها معها حائرةً أيها ترتدي، وبعد جولة تأمُّل وفحص وقياس دامت ساعات، جرَّبت خلالها كل فستان على جسدها، وتأكَّدت من مدى ملاءمته إياها، استقر رأيها على فستان أسود اللون قصير، يصل طوله إلى منتصف فخذها الممتلئة، وكان شفافًا يمرِّر من خلال قماش الشيفون الرقيق كل دواعي الفتنة ومسببات الإثارة والشغف، كان صدره مكشوفًا مظهرًا مفاتن ثدييها العامرين، ومن الخلف يُعري كل ظهرها، بعد أن ارتدته وقفت «دينا» أمام المرأة تستعرض جمالها، وظلَّت تتأمل انحناءات جسدها المثير، وتتلمَّس بيدها الفستان الرقيق

الذي يضمها وتتجلَّى منه مفاتنها البارزة، وبعد أن وضعت لمساتها النهائيَّة من المكياج، وطيَّبت شعرها وجسدها بالعود، سمعت صوت الموسيقى صاخبًا يتناهى إليها من الأسفل، وكأنَّه يتعجَّلها بالنزول للمشاركة في الاستمتاع والرقص، وما كان منها سوى أن تُذعن لرغبتها التي طالما كبتتها، وقمعت جموح أهوائها.

وقفت فجأة بعد أن رأت «ميساء» وفتاة أخرى لا تعرفها، وبرفقتهما ثلاثة شبان بدوا جميعًا في بداية الثلاثينات من العمر، فتراجعت إلى الوراء، وكادت تسقط بسبب حركتها غير المحسوبة، لكنها تداركت الأمر وشدَّت قامتها الفارعة، لتخفي ذلك القدر العظيم من الخوف الذي اجتاحها.

في بادئ الأمر ارتبكت وترددت، ولم تعِ ما يحدث، لكن شيئًا ما بداخلها ساقها لتكمل سيرها فوق الأرض، ودفعها لتخطو إلى الأمام، فها هنا عالم آخر لم ترَه مِن قبلُ سوى في الأفلام، وفي مخيلتها راحت تتذكر كثيرًا من قصصٍ

وروايات سمعتها من بعض صديقاتها اللاتي قرَّرن الفرار من جحيم الحياة الروتينيَّة إلى نعيم المرح ولذائذ العيش. جلست بجوار «ميساء» مأخوذة تراقب عيون الجالسين وحركاتهم وسكناتهم، وعلى الرغم من الإضاءة الخافتة، وانتشار الأدخنة المتصاعدة من الأراجيل المتراصَّة حول الجالسين في المكان، فإنها لاحظت أن واحدًا من الرجال الثلاثة يبتسم لها ويركِّز أنظاره عليها، وما هي إلَّا ثوانٍ حتى أتى ليجلس بجوارها هامسًا في أذنها:

- أنا «وائل»، وتشرفتُ بلقائك!

لم تُجِبه وارتبكت، فعاد يحاول استمالتها، وقال بصوتٍ مرتفع، لعلَّها تسمعه من صخب صوت الموسيقى وارتفاعه:

- هل أسكبُ لكِ كأسًا مِن الشراب؟

لكنها لم تُجِب في تلك المرة أيضًا، واكتفت بابتسامة بلا معنى، ثم جذبت «ميساء» من كُمِّ فستانها، وهمست في أذنها بحذر:

- مَن هؤلاء؟! ولماذا لم تخبريني بأنه سيكون معنا شباب؟!

تناولت «ميساء» جهاز التحكُّم الخاص بالاستيريو المزعج، وخفضت درجة الصوت، ثم راحت تتكلَّم معرِّفةً الحضور بعضهم ببعض، حتى أتى الدور عند «دينا»، فقالت المضيفة بلباقة:

- هذه صديقتي «دينا» التي أخبرتكم عنها، والتي بسببها أتينا إلى هنا، لكي ننسى عناء العمل.

لم يعجب «دينا» أسلوب «ميساء» في الكلام، ولم تجده مناسبًا، خصوصًا أنها اشتمت رائحة غريبة تتصاعد مع أنفاسها، ولم تدرك ما هي تحديدًا، فنهضت وغذت خطواتها إلى خارج الشاليه، لتقف على السقالة مستقبلةً بعض رذاذ أمواج البحر، أتت إليها «ميساء» على عجل وقالت لها لائمةً:

- ماذا فعلتِ؟! لماذا تركتِنا وخرجتِ دون استئذان؟

أجابتها «دينا» وهي في قمة الانفعال والعصبيَّة:

- أنا لا أحب أن أكون مثل الأطرش في الزفة، لماذا لم تخبريني بأنه سيكون هناك أغراب؟!

تلعثمت «ميساء» وقالت بصوت متهدج:

- لم أكُن أعلم بحضورهم إلَّا وهم قادمون فجأة مع صديقتي «وفاء»، وقد أخبرتكِ عنها وعن توقُّعي لقدومها في أي لحظة، وحين وجدتهم أمامي في صالة الاستقبال برفقتها، لم أعرف كيف أتصرَّف، مع أنني كنت قد حذَّرت «وفاء» بألَّا تجلب معها أُناسًا لا نعرفهم، لكن لم يكُن أمامي حينها سوى الرضوخ للأمر! «دينا»، أرجوكِ لا تغضبي، ودعينا نمرح قليلًا، لن يضيركِ إذا ما فرحنا واستمتعنا بوقتنا، فهم أشخاص لطفاء ومحترمون، وكل غايتي وغايتهم أن نقضي وقتًا جميلًا من الزمن ننسى فيه كل مُرهِقات الحياة.

عادت «دينا» إلى غرفة الجلوس، وهي تتمزَّق بين رغبتها الدفين في المرح والمشاركة في السمر، وبين ما تربَّت عليه من البقاء بعيدًا عن الموبقات والرذائل، لكن خذلان السنين أنساها جملةً من أسس ماضيها، فاستسلمت لأهداب الهوى، لعلَّها بذلك تفر من سوء الحظ. لم تمضِ ثوانٍ إلَّا وبدأت تسمع أغنية تعشقها، تتصاعد نغماتها وآهات مؤدِّيها المحترقة بنار العشق من جهاز الاستيريو، فشرعت ترقص وتتمايل بجسدها الغاوي المثقل بالإغراء والفتنة، تنجرف خلف النغمات المغرية، فاقترب منها «وائل» يلوب وقد أمضَّه الظمأ، وفي نشوتهِ ألف الجوى وبلابل اللهفة المحرقة، ومد لها قدحًا من النبيذ الأحمر مغويًا يبتغي منها مخادنة الليل المحمَّل بكل دواعي الفتنة، فارتشفت من الكأس، ولم تكُ تعلم ما في داخلها من شراب، بدأت تترنَّح وتشعر بالدوار حتى كادت تقع، فأحاط «وائل» خصرها بذراعيه كيلا تسقط مغشيًّا عليها، فما كان منها سوى أن دفعتهُ بعيدًا، وحملت قدميها المتثاقلتين

حملًا بالغًا لتصعد بها درجات السُّلَّم، ولم تكَد تصل إلى فراشها حتى شعرت بأن الدنيا تدور من حولها، وارتمت عليه خائرة غائبة عن الدنيا وما فيها. ظلَّت «ميساء» و«وفاء» ترقصان بغنج ودلع برفقة الشابين، وفي يد كلٍّ منهم سيجارة ماريجوانا محملة بسم رؤوس نبتة القنب الهندي، وفي اليد الأخرى كأس من الخمر، وقضوا ليلتهم بين الغناء والرقص تارة، بينما مرت عليهم فترة أخرى كانوا مخدرين منكبِّين على الأرائك، لا قوة لهم على الحراك حتى بزغ نور الشمس، فأنهى ليلة ماجنة وصاخبة، وحين أسفر النهار عن وجهه الصريح، طاردًا أي فرصة لمزيدٍ من الغواية والانغماس في العبث رحل «وائل» وأخوه «حسين» وصديقهما «خالد» وهم في غيابات المفترات والمسكرات، ولم تشعر «ميساء» و«وفاء» بأنفسهما إلَّا وهما في مكوك يصعد بهما إلى الفضاء ليجوب أقطار الأحلام ونجومها، كانت القُوَى خائرة والأنفس قد شبعت غيًّا ومخادنةً وهَلْسًا.

«وائل» شاب في متوسط العمر، أبيض البشرة، معتدل القامة، له عينان واسعتان، وشعر أسود خشن، يأبى المشط أن يمشي معتدلًا بين خُصَله من فجاجتهِ، حتى إن أصدقاءه كانوا يتنمَّرون عليه دومًا بسبب شعرهِ، ويشبهونه بلاعب كرة القدم الفرنسي «غوميز»، كان يعمل في إحدى شركات الملاحة الجويَّة. ويقضي جُلَّ وقته بين العمل وغشيان النادي الرياضي الذي يملك عضوية فيه، ولقاء الأصدقاء ومرافقة الأصحاب، بيد أنه قضى طفولتهُ في شبه وحدة وعزلة، أب لا يني يعمل في تجارتهِ الخاصَّة التي يختصها بكل ولائه واهتمامه، لدرجة العبادة، فيلوذ بها، غير مُبالٍ بمن هم في حياته، وأم منفصلة، لا تفتأ تحيا سن المراهقة، بين سهرٍ وسفر، مخفيةً ما بداخلها من حنق على مَن سلبها حياتها وأهملها، وتركها امرأةً يطلق عليها شعار «مطلقة» الكريه، في مجتمع وزمن لا يرحمان أمثالها.

كان «وائل» يعشق النساء، ويهوى اصطيادهنَّ، ومن مزاياه طول الصبر، حتى ينال مراده، وعندما يتحقق مراده ينقضّ على فريسته، ويغرس بها أنيابهُ ومخالبه، ويكبِّلها لئلا تفر منه، وتظل طوع أمر شهوته التي لطالما لم يستطِع مقاومتها. فافتُتن عندما رأى «دينا» بالفستان الأسود القصير، الفاضح الكاشف عن كل مفاتنها، ناعمة الملمس، ممتلئة الأرداف، ولها صدر عامر يثير كل الزوابع والأعاصير، حتى شعرها الغجري الداكن المموج كان يثير لعابه، وهو ينساب على ظهرها العاري، الذي كان آخر مطافه فتنة ناطقة، تتلاعب بأعين الناظرين، وتهيج الساكنين والطامعين.

سمع وجيب قلبه الذي جعله الإحساس بالشهوة يخفق بقوة، عندما جلس بجوارها مقدِّمًا نفسه، وتكدَّر لرد فعلها، لكنه لم ولن ييأس بسهولة، فهو لم يكُن من الذئاب التي تنسحب من أول جولة، ظلَّ يراقبها ويتأملها، ويضع خططه الملتوية، ويمنِّي نفسه بِرفقة تضيف على

مسائه طعمًا آخر، خصوصًا أن حصب جوارحه قد اشتعل!

استيقظت «دينا» بين الأصيل والعشي، وكان قد بدأ هبوط الشمس معلنًا انتهاء يوم طال نهارهُ، كانت تتحسَّس رأسها، وكُلَّما حاولت أن تفزَّ من ضيق اللحد الذي ضم جسدها الخائر لساعاتٍ طوال، تجد أعضاءها تأبى أن تنشط، لتعود وترمي بجسمها على مضجعها من جديد!

كانت مشوشة مختلطة الذهن، ولكن وفي لحظات يقظة عقلها القليلة طفقت تستذكر ما حصل بالأمس، كيف رقصت ثم تمايلت بإثارة ونشوة، ومن ثَمَّ الشعور الغريب الذي اجتاحها عندما أتى ذاك الشاب ليمسك بخصرها من الخلف، وتلامس جسده مع ظهرها قبيل أن تصل لحظة السقوط والتهاوي، للحظة شعرت بشهوة دفين، وكم تمنت لو أطال التلاصق، محدثة نفسها:

- آهٍ منك أيها الشيطان، وآهٍ منك أيها الوسواس، لن تهدآ حتى ينفجر البركان، لكن ما الذي حصل بالضبط؟! ولِماذا فجأة شعرت بالدوار؟ وما كان ذلك الشراب الذي سقاني إياه؟!

حينها تبخَّر كل إحساس بالخور والضعف لديها، ووثبت من فوق السرير، وكل غضب الدنيا وحنقها يكسوان وجهها المتقد!

فتحت «ميساء» عينيها لترى أنوارًا باهرة تجوب سماء الصالة، وشعرت بأن جميع أعضاء جسدها تتداعى ألمًا ووجعًا، من كثرة المجون وشدة الانغماس في الرقص، وانتابها غيظ وحنق؛ لأنها وجدت نفسها وحيدة على أريكة قد عفى عليها الزمان، كانت ذكريات الليلة الماضية لا تزال تداعبها، فعندما أحست بدفء يدي «خالد» وهو يضمها إلى صدره وبحريق لهيب أنفاسه، منَّت نفسها بليلة حميمة تعيد لها رونق أنوثتها وبهاء روحها الخامدة، لكن ليس كل ما توسوس بِه النفس من ملذات يحققهُ الشيطان، فلعلّ

هناك دعوات تقيك حتى من شر الوسواس، ولم تكَد تنتهي من حديث أفكارِها التي لم تكُن تريد إلَّا الانغماس والاستغراق فيها، حتى وقفت لتذهب إلى الحمام، وبينما هي في طريقها رأت «دينا» مقبلة نحوها، وكل غضب الدنيا يلوح في عينيها، ارتبكت المرأة وشعرت أنها ستواجه موقفًا عسيرًا لا تستطيع فيه أن تبين، صاحت فيها «دينا» وبصوت أعلى من هدير الصواريـخ:

- ما هذا الشراب الذي سقاني إياه صديقك؟!

فما كان من «ميساء» سوى التقاط أنفاسها محاولةً السيطرة على انفعالاتها، وردت مجيبةً بحذر، خصوصًا بعدما رأت صديقتها «وفاء»، جلابة المصائب والمشكلات، قد استيقظت مفزوعةً من الصراخ، فنهضت من فوق أريكتها، وراحت تفرك عينيها بذهول وخدر:

- اعذريني، لم أكُن في وعيي، ولا دراية لي عمَّا سقاكِ، لكنه تصرُّف يدل على أخلاق نابية!

لم تطُل رحلة الشؤم تلك؛ ففي اليوم التالي كانت «دينا» تقفل عائدة إلى مدينتها، محمَّلةً بذكريات سيئة، وهواجس فتنة وإفساد استسلمت لهما، دون أن يكون ذلك من عادتها، ومع ذلك فقد خلصت من تلك التجربة بشيء جديد تعلمته، قررت أن تكون قوية، وألَّا تقف لتجمع فتات التعاطف والمشاركة الظاهريَّة من الآخرين، عليها أن تعتصم بما تبقَّى لديها: ابنتها وطموحها الذي لا حد له!

- «دينا»، لقد حان موعد الغداء!

ابتسمت «دينا» بهدوء حينما سمعت الصوت المنغم يناديها، وبإيماءة من رأسها أوصلت تأكيدًا أنها لن تتأخَّر، لكنها ظلَّت واجمة وهي تقف بجوار نافذة حجرتها، تتأمل العابرين في الشارع المقابل، وخيالها قد حلق في ذكريات ما حصل معها في رحلتها الأخيرة، وكيف أنها استشاطت غضبًا من صديقتها «ميساء»، لما أقحمتها فيه من أجواء فاسدة، لم يكُن في خاطرها يومًا أن تنغمس فيها، فما كان منها إلَّا

أن تعود إلى مدينتها على أول طائرة، قطع حبل أفكارها صوتُ رنين المحمول الذي كان فوق وسادتها، حينها ازداد غضبها أكثر، فذلك هو «وائل»، لا ييأس من تكرار اتصاله بها..

- ماذا يريد؟! ألا يفهم أنني لا أود سماع صوتهِ، ولا أريد أي صلة تذكِّرني بتلك الليلة الماجنة التي مررتُ بها، والتي كدت أقع في براثن غوايتها لولا حسن الحظ؟!

لكن الهاتف ما برح يدق ويدق، رنين مزعج لرجل لا يقنط أبدًا، كان عليها أن تجيب، فإذا أرادت حقًّا أن تقصيه عن طريقها، فعليها قبل كل شيء أن تقولها له صريحةً في وجهه: ابتعد عن طريقي يا هذا وإلا...!

- سامحيني، لا أريد أن أكون مصدر إزعاج، لكن انتابني القلق عندما لم أجدك مع صديقتيك، وقد خشيتُ أن يكون قد أصابك مكروه، أو أن أحدًا من أقاربك حصلت له مشكلة ما، فوددت أن أكون بجوارك في محنتك!

تكلَّم فأطال عذره واعتذاره، كان يهيِّئ الشباك كأي صياد بارع، مغرم بالتقاط اللآلئ من جوف المحارات القاسية المغلقة، صمتت «دينا» لحظة لكونها مصدومة من وقاحته، كيف يتجرأ أن يتصل بها في هذه الساعة، وقد بلغت الزلفة من الليل! وانتبهت أنه ما زال على الخط يرد مستفهمًا وطالبًا الجواب: «ألو، ألو»، فأجابته بكل برود:

- كيف تجرؤ على الاتصال بي في هذا الوقت المتأخر؟

اعتذر عن تجرُّئه قائلًا:

- أرجو ألَّا تسيئي فهمي، فأنا عندما رأيتك اجتاحني شعور غريب، وعندئذ لم أستطِع أن أُقاوم ما أصابني من إحساس جيَّاش، وشعور طاغٍ غريب عليَّ!

متجاهلةً الدعوات التي تقودها إلى الانزلاق في مستنقع الرجال، وتغريها بأن تترك مصيرها بين أيديهم مرة أخرى، بدأت «دينا» تبحث من جديد، وتحاول أن تحدد ماذا تريد بالضبط، هل ترغب في مجرد العيش سادرة في الحياة،

مستجيبةً للحاجات اليوميَّة التافهة والصغيرة وحسب، مجردةً من أي طموح ووجود حقيقي، أم تحاول أن تكون ذات مكانة وشأن، لكي تثبت لنفسها ومَن حولها أنها قويَّة، على الرغم من كل الظروف العصيبة التي كُلَّما اجتازت بعضها بسلام، تهب عليها من جديد هبوب الحسوم، فتحاول أن تجدِّف بقاربها المثقوب وهي هيَّابة خائفة أحيانًا، وأحيانًا أخرى تقاومها عازمة على المضي قدمًا دون أن تستسلم لأي خسائر، لكنها إنسانة في نهاية المطاف، وقد وهنت حيلتها وتكسرت مجاديفها التي تحاول أن تستعين بها في وجه تيار الشؤم والتشاؤم!

عند ذاك، قررت أن تعطي لحياتها معنًى وهدفًا، وما من شيء يمنح الإنسان الثقة بنفسه قدر الانشغال في عمل يحقِّق فيه ذاته، ويفيد به الآخرين، وفي رحلة البحث عن عمل جديد، كان «وائل» يطاردها باتصالاته كل وقت وكل حين، ألحَّ في محاولة التقرب، قدَّم الهدايا، وضحَّى بوقتهِ بسخاء مرارًا، لعلَّها تلين وتستجيب..

حاول جاهدًا وطارقًا كل الأبواب، ليجد لها وظيفة تلبِّي طموحاتها وتُشبعها، كل هذا وذاك ليستأثر بوِصالها، وربما ينال يومًا عطفها وحنانها. كانت «دينا» في حيرة من أمرها، فأوقاتٌ تمر بها تحس فيها رفضًا ونفورًا، وتستنكر محاولاته المتكررة للتقرُّب إليها، معللة الأمر لقلبها المستضعف بخشيتها من أنه قد يُعيرها بالطريقة التي تم فيها اللقاء الأول بينهما، ولحظات أخرى تلح عليها رغبة بداخلها أن تشبع أنوثتها، التي يتغنَّى الشاب نهارًا ومساءً بها، ويمتدح «دينا» مؤكدًا أنها أجمل وأفتن ما رأت عينهُ من نساء، لكنها كانت تخشى أن يذبل هذا الجمال، الذي كادت تفقد بريقه كُلَّما حلَّ رجل بحياتها، وأفسد عليها أمرها، كانت تقر وتعترف بأنها أنثى خُلقت لتستقر في أحضان رجل، لكن «وائل» ليس مستقرًّا على موقف واضح، ومشكلاته المعقدة، وعكوفه على شهواته ردحًا من الزمان، لا مناص من الإقرار بها، والتخوُّف من أنها قد تجعله يعود إلى نكوصه.. وبعد حيرة وتفكير اتخذت

قرارها، فقد مالت إلى إحساسها، وعقدت العزم على أن تستوثق من حقيقة الأمور، وحزمت أمرها حين سألت عنه عن كثب.

في أحد الأيام، اضطرت إلى السفر على عجل إلى مدينة جدة، للحاق بموعد لدى طبيب مشهور، قد طال انتظار دورها في مراجعته، وما إن انتهت من زيارة الطبيب الذي طلب منها إجراء بعض الفحوصات المخبريَّة التي جاءت لتغيِّر كل ما خططت له من ترتيبات وحجوزات طيران، حتى اكتشفت أنها أضاعت حافظتها التي تحوي جميع أوراقها ووثائقها الثبوتيَّة والبنكيَّة، ارتبكت وهي في صالة الانتظار بالعيادة الكبيرة، ولا تدري ماذا تفعل، لم تستمر في صراع مع أفكارها ومخاوفها طويلًا؛ لأن اتصالًا هاتفيًا من «وائل» قد جاء على غير توقُّع، فردَّت عليه من غير أي تردد أو إمعان تفكير، بعد سؤاله عن صحتها، وإلحاحه في الاطمئنان عليها، قال لها مشفقًا:

- لماذا أشعر في صوتك الهلع والذعر؟ هل أنتِ حقًّا على ما يرام؟

لم تملك هذه المرة المكابرة أو التجاهل؛ فهي في ورطة لم توضع فيها من قبلُ، فشرحت له موقفها بكل حسن نية، على أمل أن يشير عليها بنصيحة ما، أو يجد لها منفذًا للتغلُّب على أزمتها المفاجئة، لكن لم يكُن جوابه سوى أن ترجَّاها أن تمنحه وقتًا، لا يتجاوز ما تستغرقه مسافة الطريق، ليكون بجوارها في موقفها العصيب، وبالفعل نفَّذ الرجل تعهده؛ فبعد سويعات قليلة كان إلى جوارها، مقيلًا إياها من عثرتها، ومعطيًا إياها شعورًا بالأمان والمساندة.

- لا أعلم كيف أشكركَ على موقفك النبيل، لكن أعدك بمجرد عودتي إلى مدينتي، سأحول لك جميع النقود التي دفعتها للمختبر.

فعبسَ للحظة، ثم ابتسم قائلًا:

- لا داعي لهذا الكلام، حاليًّا يهمني أن ننتظر نتائج التحاليل، ونطمئن على صحتك.

فردت مبتسمة بمرح وقالت:

- لستُ معتادة هذا التدليل، خصوصًا من طرف رجل، ولتطمئن مسبقًا فإن مراجعتي للطبيب كانت فقط للاطمئنان على صحتي بصفة دوريَّة وعامَّة، لكن هذه المرة تأخر موعدي بسبب سفر الطبيب الذي أتابع معه حالتي منذُ زمن.

- جيد جدًّا! هذا خبر جميل؛ فقد خشيت أن تكوني تعانين شيئًا ما، والآن أرجو أن تلبي دعوتي إلى الغداء، وأن تدعيني أبحث لكِ عن فندق لتقيمي به حتى الغد، وإلي أن يحل موعدك لمراجعة الطبيب.

رفضت عرضه بلطف في البداية، متناسيةً الظرف القهري الذي وُضعت بهِ كرهًا، لكنه أصرَّ بأدب، وقبل شرطها المسبق أن ترد له جميع الأموال التي تحمَّلها بسبب هذا المأزق المحرج.

بعد وجبة غداء لذيذة من المأكولات البحريَّة، طال انتظارها في السيارة، وبعد أن حجز لها في أحد الفنادق المطلة على البحر، صعد إلى غرفتها ليتفقدها، وترك لها ظرفًا بهِ مبلغ مالي لتلجأ إليه في حالة الضرورة، عاد إليها مسرعًا مقدمًا كل الأعذار عن التأخير الناجم عن إتمام إجراءات حجز الفندق، والتأكُّد من تجهيز الغرفة وترتيبها، فاحمرت وجنتاها خجلًا من شدة لطفه، وأحست بحرج كبير، شكرته للمرة العاشرة على موقفه الرجولي، واتفقا على أن يمر عليها في تمام الساعة التاسعة مساءً، ليتناولا طعام العشاء معًا.

بعد قسط ضئيل من الراحة والاستلقاء فوق السرير، لم تستطِع «دينا» الخلود إلى النوم، فقامت تبحث عن شيء تتشاغل به، وهي تتأمل منظر الغروب من النافذة البانوراميَّة التي ترى من خلالها البحر والمنظر الخلاب حوله، مضى الوقت ثقيلًا، وحين اقتربت التاسعة، بدأت تستعد وتتجهَّز لموعدها مع «وائل»، لكنَّه تأخر عن

الموعد المتفق عليه، وحين بلغت الساعة العاشرة دون أن يظهر، انتابها شيء من القلق فاتصلت على رقم هاتفه لتطمئن، خشية أن يكون قد أصابه مكروه، لكن صوتًا غريبًا لا تعرفه رد مجيبًا عن تساؤلها بأن «وائل» في المستشفى!

تلعثمت وصمتت للحظة لا تدري ما تقول، ثم طلبت منه اسم المستشفى ورقم الغرفة، عذَّبها التردد في بادئ الأمر، لكنها حسمت موقفها؛ فهو لم يقصر، ولم يتأخر عنها في مشكلتها، فقررت الذهاب للاطمئنان عليه، استوقفت سيارة أجرة، وأعطت السائق العنوان بصوت مرتجف، ثم هرعت عبر الممرات البيضاء المتألقة بالأضواء، ولم يطُل انتظارها؛ لأنها سرعان ما رأته مُلقًى على سرير في قسم الطوارئ، وفي ذراعه اليمنى شُبك خرطوم تغذية، شعرت بالخجل عندما رأت شخصًا لا تعرفه بجواره، لكنها تشجَّعت بعدما أدرك وجودها وطلب منها الاقتراب، سرعان ما قرأ ملامحها، ولاحظ فيها القلق فقال لها:

- لا تخافي، مجرد سخونة وقليل من الدوار، لكن ما أدراكِ بما حدث لي؟ وكيف عرفتِ مكاني؟

أجابتهُ قائلة:

- عندما تأخرت عن موعدنا أصابني القلق فاتصلت على رقم هاتفك، ألف سلامة عليك، هل بمقدوري أن أقدم لك أي خدمة؟!

ابتسم وهتف متلطفًا:

- شكرًا، تكفيني رُؤيتكِ!

أطرقت إلى الأرض حياءً، ولم تمضِ إلَّا نصف ساعة حتى غادر المستشفى، وبرفقتهِ «دينا»، بعدما سمح الطبيب بخروجهِ، موصيًا بأن يرتاح وألَّا يبذل مجهودًا لمدة يومين على الأقل.

استقلَّا سيارته، وهما في الطريق إلى الفندق قال لها:

- أعتذر عن ضياع وقتك، وعن وجبة العشاء التي وعدتكِ بها.

فردَّت معاتبة:

- لا تقُل هذا الكلام، أهم شيء أن تكون بصحة وعافية.

وفجأة اقترح عليها:

- ما رأيكِ لو أحضرنا طعام العشاء إلى منزلي، لكي يتسنَّى لي كذلك أخذ الدواء؟!

ارتبكت وتوترت، قالت في نفسها: لا، كيف أذهب معك إلى منزلك؟ لم أفعلها من قبل قَط!

نظرت إليه مليًّا، وقبل أن تجيبه بالنفي رأت عليه آثار التعب والإرهاق، ومن غير أي إدراك منها أفلت لسانها وأجابت:

- لا بأس، لكني لن أبقى طويلًا، سأرافقك حتى أطمئن على صحتك، وأغادر فورًا.

في أثناء تناولهما طعام العشاء في صالون استقبال الضيوف، لم يكُن يقطع صمتهما الطويل سوى صوت الغناء الآتي من التلفاز، لكن فجأة شعر «وائل» بعدم توازُن في جلستهِ، وأصابته رعشة خفيفة ارتجف لها بدنه،

فاستلقى على الأريكة المجاورة له، فما كان من «دينا» إلَّا أن سقته قليلًا من الماء، وأعطته قرصًا من «البنادول»، وبعد أن تفحصت المكان مليًّا، ذهبت إلى المطبخ وجلبت ماءً باردًا وخرقة من القماش، ووضعت كمادات على رأسِهِ، لتخفض من حرارته وتهدئ من حدة رعشتهِ، بقيت بجوارهِ على هذا الحال تستبدل الكمادات حتى استقر جسده وسكن، وقد حزنت على حاله، وعندما دنت أكثر لتبدِّل آخر كمادة لم يقوَ «وائل» أن يقاوم عبيرها وفتنة جسدها، فضمها إليه بقوة، وبدأ في غمر رقبتها وشفتيها بالقبلات الحارة، قاومت «دينا» بكل ما أُوتيت من قوة، بيد أنها لم تستطِع التغلُّب على قوة بنيانه، فخارت قواها أمامه، لم يرحمها ولم يرق لتوسلاتها، واستمر في هتك عِرضها، حتى أشبع طغيان شهوته!

عيناها تجوبان أرجاء المطار، متخوِّفة محطمة، جلست تنتظر موعد إقلاع رحلتها، آملةً أن تنشق الأرض وتبتلعها. كانت ترتدي عباءة وضعت فوقها شالًا وترتدي

أسفلهما بنطالًا كأنَّما كانت تبالغ في ستر جسدها الذي انتُهِك رغمًا عنها، وأطلقت لساقيها العنان هربًا ممَّا جرى لها. أوقفت سيارة أجرة لتنقلها إلى الفندق، وارتمت على الفراش، وانتابتها حالة شديدة من الهلع، وأُفحمت في بكاء مرير وطويل، احتقرت نفسها لأنها لم تستمع إلى صوت عقلها، عندما راودتها الظنون السيئة، واتَّبعت عاطفتها عندما رأته يمثل دور المريض المستضعف، تساءلت بذلة وقهر:

- أنسيتُ أنني أمٌّ لطفلين؟! كيف سأربيهما؟ وكيف سأمنحهما شعور الأمان في زمن كله خيانة وغدر؟! وكيف سأعلمهما الثقة بالآخرين؟! وكيف سأزرع بهما حُسن الظن وهو غير موجود؟! كيف؟! وكيف؟! كم أنا غبية وساذجة! أُيعقل أنني وبكل سهولة أكون فريسة للذئاب؟! أُيعقل ما أصابني من اعتداء من غير وعي أو إدراك؟! هل أصبح همُّ الشباب النهش في لحم النساء، أم أننا قللنا من أنفسنا حتى أصبحنا سلعة في نظرهم تُشترى وتباع؟! ما الذي يحصل

معي؟! أمعقول أنني أسدد فاتورة أخطاء غيري مِن الجُناة؟! نُفيتُ في دار مرعبة، وترعرعت على يدَي امرأة لا همَّ لها إلَّا السلطة والجاه، ولم أجنِ من حياتي سوى الخذلان والجحود، والآن أتمها عليَّ الزمان بالعار!

قررَتِ الهروب، لكن من ماذا بالضبط؟!

من ماضيها الذي لم تخترهُ، أم من تجاربها التي عاشتها بسوء اختيارها، أم من حاضرها الذي أدماها وأثخن روحها؟!

طفقت تُحادث قلبها الجريح الذي كادت تدميه بطعنة خنجر أخرى، فراح عقلها يراجعها فيما تقول وتقرر، وهمست يائسة متوجعة:

- لستُ وحدي في هذه الحياة، وليس لي مطلق الحرية في الرحيل أو البقاء، فعندما أخذت قرارًا بمحض إرادتي أن أصبح أمًّا أصبحت ملكًا لولديَّ، لا مِلك نفسي!

حينها استجمعت ما تبقَّى لها من قوة، ونهضت قائمة، وهتفت بصوت مسموع لها:

- لن أجعل الحقراء يثبطون عزيمتي، أو يجهضون أحلامي ورغباتي، وسأمحو الماضي السيئ من دفاتري.

وحين هبطت الطائرة على أرض مدينتها مرة أخرى، كان شيء ما قد تغيَّر بداخلها إلى الأبد، وبناءً على ذلك قررت أن تبدل اسمها مِن «دينا» المتداوَل بين الناس، والمحبب إلى قلبها، ومِن «خديجة»، المكتوب في هُويتها الوطنيَّة، إلى «ديجة» الذي يضم حروفًا من الاسمين معًا، لكي تتذكَّر دومًا أنها وُلدت وبداخلها شخصان مختلفان!

*****

(٦)

بعد عناء دام لأشهر بين مكابدة تذكُّر الماضي وبين إثبات الذات في الحاضر، أخيرًا أجرت «ديجة» المقابلة الشخصيَّة في أحد المصارف البنكيَّة المعروفة، حققت قبولًا مجدودًا، ولم يمضِ أسبوع حتى وجدت نفسها على مكتبها الوثير المريح الذي كان أكثر ممَّا تحلم به، وبدأت بكل حماس ونشاط تباشر عملها، وأصبحت شُعلة حماس ونشاط لكل مَن حولها، فيستمدون منها الطاقة التي تجعل نهارهم مليئًا بالحيويَّة وفيوض النور.

كان للعمل، كما لكل شيء آخر، متاعبه، إنها ليست الجنة في الأرض، ولم توجد قط جنة على الأرض، لكن عند حساب الخسائر نقول إن المرأة التي وُلدت من جديد، والتي جاءت إلى هذا العالم باسم مستجد، وبإصرار كبير على ألَّا تنجرف ناحية طريق عافته نفسها، وملَّت الخوض فيه، قد حملت معها بذرة جديدة، بذرة تنتظر مَن يزرعها، لكن كوعد سماوي فقد كانت القوة مختزنة داخلها، ألقِني في أرض خصيبة، وسأبرعم ناشرةً أجمل الثمار وأرق العطور..

مرت سنتان من الهدوء بعد سنين عجاف كانت ترجُمها بوابل من التيه والألم والحرمان، ومسغبة دون أمان، بادئ الأمر كانت في حذر وترقب، ولكن مع مرور الوقت شرع قلقها يتبدَّد، خصوصًا عندما لم تعُد تصغي لمن هم بادي الرأي من المتشائمين المرجفين، مِمَّن يحوِّلون كل أمل جديد بازغ إلى مشروع خيبة مُرَّة، وكذلك عندما خصصت جُلَّ وقتها لابنيها (فأخيرًا وبعد عناء، توصَّلت إلى اتفاق

قانوني مع «نواف» يسمح لها بأن ترى «سلطان» وأن يقضي معها إجازاته) ونفسها، ومضت تقضي أيامها بين الفسحة والتنزه، وحولها «سلطان» و«يارا»، وبين الأندية تمارس رياضة اليوغا، وبالتأكيد الرقص الشرقي الذي لا يقل أهمية عن غيره، لتحافظ على رشاقتها ومرونتها. فكانت «ديجة» متيَّمة بأن تلحظ نظرات العيون المختلسة مِمَّن هم حولها، وترى انعكاس فتنتها على بريق عيونهم الظمأى؛ فهي أولًا وأخيرًا أنثى، لكنها على خِلاف مع مقولة أن الانسان يرث عيوب وأخطاء والديه، نعم هي لا تعلم عنهما شيئاً، ولا تعلم إن كانا صالحين أم طالحين، ولكنها مُقِرة جداً بأن كل الإنسان هو له القرار الأول والأخير في تشكيل شخصيتهِ وهويته مالم يسمح للآخرين بالتطفل والتأثير عليه بأفكارهم الواهية.

على مدى الأيام، أثبتت جدارتها في العمل، حتى كُلِّفت بمنصب مدير إدارة بالقسم الذي تعمل فيه مؤقتًا، وذلك إلى حين عودة الشخص المسؤول من إجازتهِ السنويَّة.. في

خضم مهامها الجديدة والكثيرة التي فُرضت عليها مع المنصب الجديد، أصبح بينها وبين مسؤولي المصارف الأخرى وموظفيها لقاءاتٌ واجتماعات، فأتاها عرض مُغرٍ من مصرف آخر، كانت فرصة للقفز خطوتين أو ثلاثًا في لحظة واحدة، لكنها ترددت في البداية، فقد أَلِفت المكان وأصبح بينها وبين زملائها مودة ومواقف لا تُنسى، بيد أن طموحها لا سقف لهُ، والتغيير بات نمطًا مهيمنًا على شخصيتها وحياتها، الذي كان جزءٌ منهُ بمحض إرادتها وتخطيطها، بينما النصيب الأكبر من مجريات حياتها لم ترسمها، أو تُسهِم في تحديدها، إنما كان خطًّا حدده القدر، وجعلها عرضة ونهبًا لظروف أكبر من أن تستطيع تغييرها، فوافقت بعد استخارة واستشارة، ولم يمضِ شهر ونيف من الزمن إلَّا وهي بين زملاء جدد، ابتسامتهم جديدة، وصباحهم مختلف، حتى لغة الحوار معهم كانت شيئًا آخر لم تعهده من قبلُ، بيئة مغايرة تمامًا، ظاهرها المنافسة والتحدي، وباطنها مد يد العون بكل حب ومودة، كانت

تخشى تكوين العلاقات ومد جسور الود إلى خارج حدود مبنى العمل، خوفًا من مجهول قد يؤذيها لا تدرك من أين يطالها، فلا تريد مُكاءً ولا تصدية نفاقًا، إنما تريد أن تزداد تألقًا بإبداعها وحسن أداء عملها إلى ما قبل الغروب، أما بقيَّة يومها فتكون لها وحدها، تمضيها بين أحضان أبنائها وبين الإقبال على ما يُسعدها، تريد أن يكون مساؤها هدوءًا وسلامًا، وصباحُها ارتشافَ فنجان قهوة مصحوبًا بالشعور بالأمان؛ فهي للأسف لطالما راودها كابوس يزاحم أحلامها، وجاثوم خانق يضايق منتصف نهارها.

- صباح الخير أستاذة «ليلى».

- أهلًا «ديجة»، صباح الورد.. ما شاء الله، كعادتك أول موظفة تحضر إلى مقر العمل!

- الحمد لله يا أستاذة «ليلى»، إنني حريصة أن أستيقظ في الصباح الباكر، لكي يتسنَّى لي الوقت لتناوُل وجبة الإفطار مع أمي وابنتي «يارا».

- شيء جميل يا «ديجة» أن يحافظ الإنسان على عاداتهِ، خصوصًا إن كان فيها واجبات عائليَّة كاهتمامك بأمك وابنتك.

- إنهما، يا أستاذتي، أهم شيء في حياتي، وبهما ولهما أحيا.

- أحسدك على روحكِ الجميلة التي لطالما رأيتُها تبثُّ جو السعادة والمرح بين زميلاتكِ، حتى إنني لاحظت أنه في أثناء غيابك يظللن وكأنَّ على رؤوسهن الطير، ويعملن بملل وفتور.. أشكرك على نشر الطاقة الإيجابيَّة في المكان.

تبعثرت كلمات «ديجة» بخجل أدى إلى احمرار وجنتيها، لتقول:

- إنني سعيدة معكن في العمل.

- ممتاز، وإنه ليسعدني كذلك وجودكِ معنا، ولكن اعذريني على التطفُّل، شعرتُ في أكثر من موقفٍ أنك تفضِّلين العزلة، وأكثر من دعوة لقاء مع زميلاتكِ خارج مقر

العمل، خصوصًا في عطلات نهاية الأسبوع، عرفتُ بتحرُّجكِ واعتذارك عن عدم الحضور.. أرجو ألَّا يكون قد صدر ما يزعجكِ من إحداهن!

- بالعكس يا أستاذة «ليلى»، إنني أستبشر وأفرح عند دعوتهن لي إلى الخروج في نزهة، أو إلى مناسبة ما، لكن الحقيقة، وكما أخبرتك توًّا، أن معظم وقتي أقضيه مع أمي وابنتي، لكن إن شاء الله في القريب العاجل سوف تجدينني ألبِّي الدعوات، وأشارك في المناسبات بكل سرور!

بلغ «سلطان» العاشرة من عمره، وكان يشبه أمه في الشكل إلى حدٍّ كبير، وكذلك في طيبة قلبها، لكنه للأسف ورث عن أبيه بعض الطبائع والتصرُّفات الذي لم يستطع التحكم بِها وذلك لصِغر سنهِ وعدم درايتهِ بكيفية إدارة الأمور، مثل القلق والتوتر والانفعال الدائم والعنف.. استقرت تلك الخصال المقلقة في تكوينه منذُ صِباه، لِما رآه وشهد عليه من تعامل أبيه غير السوي مع أمه، وانعكس ذلك على تصرفاته وسلوكه، فلم يتوانَ يومًا عن

أذية أختهِ «يارا»، محاولًا اختلاق المشكلات كي يعنِّفها ويضربها، بيد أن أسلوبهُ القاسي ليس خصلة ملازمة؛ فكان أحيانًا يحن على أخته ويشفق عليها.. هو في الحقيقة طيب القلب، لكنه مبعثر المشاعر ومشوَّش التفكير، كان مجتهدًا في الدراسة، ومرحًا مع زملائه في الصف، لكنه كان يميل إلى الوحدة والعزلة في المنزل، فيقضي جُلَّ وقتهِ أمام الحاسوب، إمَّا للمذاكرة وحل الواجبات، وإمَّا للعب مع أُناسٍ لا يعرفهم، ولم يرَهم، يعيش حياته مع أشخاص افتراضيين دون حسيب أو رقيب، لكنه يحاسب أمَّه كثيرًا على غيابها، وكان يغبطها بسبب حِدة ذكائها؛ فهي تفطن لكل تصرفاتهِ وتقرأ أفكاره، وعلى الرغم من وجوده معظم الوقت في منزل أبيه، فإنها الأقرب دومًا إليه؛ لأنها تستمع إلى حديثه الذي يُضجر سامعيه أحيانًا، ويثير بهجتهم أحيانًا أخرى.

أما «يارا»، فما زالت في الثامنة من العمر، تشبه عمتها بدرجة واضحة للعيان، وبخاصَّةٍ في بياض بشرتها وطول قامتها، لكنها أخذت من والدتها حور العين، وشعرها الغجري الثائر، واكتسبت كذلك منها حبها للدُعابة والمرح.. ولم تكتفِ بذلك، بل أصبحت تقلِّدها في جميع حركاتها وطريقة ضحكها، محبة لوالدتها وترتمي دائمًا في أحضانها بمجرد أن تراها، كانت الطفلة سر ابتسامة «ديجة» ومبعث سعادتها، بل أكثر من ذلك، فكم ظلَّت تراقب أمها في كل تصرفاتها، وكم تمنَّت وحلمت أن تصبح مثلها في جمالها ودلالها ورشاقة جسدها. كانت الأم مثلًا أعلى لها في كل شيء، طموح البنت ليس له حدود، وشغفها بالمعرفة جعلها تعشق القراءة، ولا تفتر عن التهام القصص والروايات في كل ليلة.

لا تفتأ «ديجة» تحافظ على نمط الحياة ورونقها في منزلها، منزل «وهيبة»، ولم تكُن تمل الجلوس مع «وهيبة»، نعم أصبحت الأخيرة أكبر سنًّا، وصارت كثيرة

الحديث، ثرثارة، ومعظم أحاديثها عن أمجادها وإنجازاتها، وما قدَّمته من الخدمات الكثيرة التي استفاد منها معظم الموظفين الذين خلفوها في الوزارة التي كانت تعمل بِها، لكنها وعلى الرغم من أنها بلغت الستين من العمر، فإنها ما زالت متعلقة بالحياة، ومحافظة على تمام أناقتها بين الحضور، وظلَّت تمشي كدأبها بينهم بخُيَلاء؛ فهي كانت وما زالت تعدُّ نفسها من الطبقة الأرستقراطيَّة، على الرغم من أنها في بعض العلاقات والعادات اليوميَّة تكون على حرف من الطبقة البرجوازيَّة، شخصيَّتها الملتبسة حيَّرت مَن حولها مِن المختصين والمهتمين بعلم الأنثروبولوجيا، حتى إن بعض المتفلسفين من أقرانها كان يردد: «لو أن كارل ماركس ما زال على قيد الحياة لغيَّر مفهومه عن وصف الطبقيَّة بسبب هذه المرأة!» التي غشَّاها ما غشَّى؛ فتارة تكون الأم الحنون والصديقة الطيبة، وتعد من بين المخبتين، وفي الجلسة نفسها والمكان ذاته تتحوَّل إلى امرأة يطغى عليها الغرور والصلف. كانت لحظات تطنب في

إلقاء اللوم على نفسها لاختيارها طريقًا فجًّا وضيقًا من الحياة عنوانه ونهايته «الوحدة»، بينما تمر عليها لحظات أخرى تتذكَّر فيها كيف حاولت إصلاح ما أفسدته في حيوات الآخرين. لدرجة أن «ديجة» كانت تُحجبَ في نفسها وقرًا، يتوغَّل أحيانًا بداخلها فيرهقها من معاملتها إياها، وأحيانًا أخرى تلتمس لها ألف عذر، لكنها في كل الأحوال لم تعُد ترجو من أمها هذه خيرًا، لكنها لن تستطيع أن تكون بمنأى عنها، أو تهجرها هجرًا جميلًا، بسبب مرض السيدة العجوز، وبداية ظهور معالم الإصابة ببلية «ألزهايمر» في كلامها.

ذات يوم من أيامها الروتينيَّة، استيقظت «ديجة» متأخرة عن موعد العمل، على غير عادتها، وأحست فجأة بأنها تعاني سخونة وألمًا في أحد أضراسها، حاولت في بداية الأمر أن تتصل برئيستها في العمل، كي تعتذر منها عن التأخير، وتستأذنها مدة ساعتين لمراجعة طبيب الأسنان، لكنها عندما وجدت خط التليفون مغلقًا اضطرت للذهاب

إلى العمل، وتحمُّل ما يُرهقها من ألم. كانت تشعر بالحر والسخونة على الرغم من أنها ضبطت جهاز التكييف على أقل درجة، ومن شدة إعيائها لم تلحظ وجود ورقة صغيرة على سطح مكتبها، كانت رسالة مقتضبة كُتب فيها:

- أستاذة «ديجة»، أرجو أن تراجعي تفاصيل العمل مع الأستاذ «أيمن»، زميلك من قسم الرجال، وتعرضي له منجزات الأسبوع الماضي، وذلك لتكليفي بصورة مباغتة بحضور اجتماع في المقر الرئيس.

أغمضت عينيها للحظات لتخفف عنها وطأة الألم، ولكي يهدأ صداعٌ يوشك أن ينشقَّ له رأسها، لكنها ودون أن تشعر دخلت في غيبوبة لحظيَّة لا تعرف كم من الوقت استغرقت، وعندما فتحت عينيها بصعوبة هبَّت من مكانها وهي تنتفض، وكأنَّها رأت الموت ماثلًا أمامها، ثم استجمعت قواها وتظاهرت بالهدوء، كانت ترى رجلًا جالسًا قبالتها راسمًا على وجههِ ابتسامة، وإحدى ساقيه فوق الأخرى، وبكل برود وبصوت عميق يخاطبها قائلًا:

- صحَّ النوم.

شعرت بخجل، لكنها أخفته بسؤالها للدخيل مباشرةً:

- عفوًا، من أنت؟

فما كان منهُ سوى أن وقف واتجه إلى أحد الأرفف، وتناول بعضًا من الملفات، ودون أن ينظر إليها هتف شارحًا الأمور ببساطة:

- أنا «أيمن» من قسم المتابعة!

تورَّدت وجنتاها خجلًا، وشعرت بحرج شديد لِمَا رآهُ منها، وفي أول لقاء يجمع بينهما، فحاولت استدراك الموقف قائلة:

- ومَن سمح لك أن تدخل مكتبي من غير استئذان، وأنت تعلم أن هذا قسم خاص بالنساء فقط؟!

أجابها بثقة، وصوت هادئ وعميق:

- لقد أبلغتُ رئيستكِ في العمل بموعد جولتي للاطلاع على منجزات الأسبوع الماضي، ومع ذلك اتصلت عدة مرات على رقم مكتبها، لكنها لم تُجِب، وحين حادثت سكرتيرتها، أخبرتني بأنك قد كُلفتِ بهذه المهمَّة نيابةً عنها، ومن ثَمَّ أدخلتني السكرتيرة مكتبك.. وعندما وجدتك في سُبات لا قرار له لم أشأ أن أزعجكِ، لكن يبدو أنك غير مستعدة لهذا الاجتماع!

بعد أن غمرها شعور بالحرج، تَوَضَّح في نبرات صوتها ونظرات عينيها، أجابت بصوت خافت:

- الحقيقة نعم، لست مستعدة؛ لأنني تفاجأت، ودون أي سابق إنذار بترتيب هذا الاجتماع قبل الضحى.. لكن لا بأس، دعني أستعرض لك المطلوب.

ولكن ما إن شرعت «ديجة» في جلب الأوراق والملفات الخاصَّة بالمهام المُنجزة وتجهيزها، حتى سقطت أرضًا مغشيًّا عليها..

بعد لحظات، استفاقت على محاولات السكرتيرة إيقاظها، وقد بدا على ملامح وجهها الجزع والقلق، ووجدت الأستاذ «أيمن» يمدُ لها يده بقنينة ماء قائلًا:

- يبدو عليكِ الإجهاد والتعب، دعيني أصحبك إلى أقرب مستشفى.

كادت ترفض، لكنها لم تنتبه لنفسها إلَّا وهي تشير بإيماءة من رأسها بالإيجاب.

«أيمن» شاب وسيم، غزا الشيبُ رأسَهُ قبل الأوان، أبيض البشرة، حاد الملامح، متوسط الطول، عريض المنكبين، حاصل على شهادة جامعيَّة في تخصُّص إدارة الأعمال، ومشهود لهُ بدماثة الخُلق، يقضي يومه موزعًا بين العمل، وبين أمهِ وابنتهِ الوحيدة، ويصرف قليلًا من الوقت

مع رفاقه، من عائلة ميسورة الحال، لكن شغفه بأن يرتقي إلى أعلى المناصب جعله حريصًا على التفاني في العمل. ساءت حالته النفسيَّة مدة من الزمن، تحديدًا بُعَيد الانفصال عن حبيبته ورفيقة دربه، لكنه عاد إليها ترضية لنفسيَّة ابنته، هذا ما كان يُستعلَن بينه وبين أمهِ، لكن الحقيقة خلف الكواليس بينه وبين قلبهِ كانت شيئًا مختلفًا، أنه يُكابر ويعاند ويداري مشاعره، وهو يعلم أن حبَّه زوجته أعمق وأشد من أي شيء آخر في الحياة، أقوى من مشاعر غضب تجمَّعت سحبها في حروف كلمة «طالق» القليلة المميتة، وأصلب مِن أن ينكسر بمجرد بعثرة مِداد قلم على ورقة تسمَّى «صك طلاق»، لم يقوَ يومًا على فراقها، أو حتى تخيُّل أن يعيش دونها؛ فهي علاقة حب مرَّت بمراهقة عمره ونضوجه، ودامت خمس سنوات، كانت هي الدافع الرئيس والسبب غير المعلن لمواصلته التعليم حتى مرحلة البكالوريوس؛ لأنها تريدهُ أفضل رجل في الدنيا، وظلا يتعاونان على الاستذكار ليلًا

ونهارًا، ولم يتقاعسا أو يتهاونا، حتى حصلا على مبتغاهما ونالا الشهادة الجامعيَّة، ولم يضيِّع من عمره يومًا، فتقدَّم طالبًا يدها بمجرد تسلُّمه شهادة التخرج، ولم يسكن له جفن حتى أصبحت في عش الزوجيَّة، مُنصَّبةً ملكةً على عرش مملكتهما، لكن شيئًا ما قد كُسر داخله عندما طلبت منه الطلاق، متجاهلةً تمامًا كل نذور الحب وقرابينه التي بينهما، ضاربة عرض الحائط بذكرى كل عشق بينهما قد وُلِدَ من أول نظرة، لماذا؟! لأنها شعرت تجاهه بملل، وقد ضاقت بها الحيل، ولم تعُد تطيق صبرًا على تدخل أمهِ في كل تفاصيل حياتهما، كان يعلم في قرارة نفسه أنها على صواب أحيانًا، لكن هذه أمه التي عاشت من أجله وأفنت عمرها لتجعل منه رجلًا، ليس لها في الدنيا سواه، وقلبها أبيض، وبطبيعتها عفويَّة، ولا غاية لها سوى تحقيق السعادة لهم جميعًا، وكانت هي أول مَن غضب وصُدم عندما علمت بموضوع الطلاق، ولم تهدأ أو يرتح لها بال حتى أعادت الملكة إلى عرشها، لكن هذه المرة رجعت

لتتملَّك كل شيء إلَّا قلبه، فغرز الخنجر أعمق من أن يندمل بورقة أو صك امتلاك جديد، تلك هي قلوبنا، عندما تعشق، تعشق بِلا حدود، وعندما تُطعن وتُجرح تأبى الرضوخ والاستسلام بسهولة، ولا يداويها إلَّا دوران الزمان، لكن للأسف فربما قد حان الحين، وتبدَّد الوله والشوق منه؛ فالهجران ليس مجرد فراق الأبدان، الهجران فراق مشاعر الحب وتلاشيها من الوجدان.

دخلت «ديجة» إلى منزلها والبسمة العريضة تضفي عليها مزيدًا من الجمال، وقفت لحظة متأملة، وفي حالة شرود، أمام المرآة التي تزين المدخل، تراقب بريق عينيها، وتنصت إلى دقات قلبها، التي لم تسمعها منذُ زمن يُحسب في عداد عمرها بالشيء الكثير، كانت في حيرة من أمرها، على الرغم من تزاحم الطرقات وقلة النسيم المرطب، والنفحات الساخنة وحرارة الجو التي لا ترحم، وزحام الأفكار، والمرض الذي قد أعيا جسدها وأسقطه بغتة، دون أي أسباب أو مقدمات، فإنها تجد نفسها تبتسم؛ فهي لم

يسبق لها أن تأبَّطت ذراع رجل غير زوجها، ولم يسعفها غريب من قبل، فقد أعانها ذلك الرجل، الذي أفاقت لتجده تلقاءها، على الوقوف، وساعدها وهي تنزل من باب السيارة، بعد أن تناول يديها الناعمتين، لا تعلم إن كان ما شعرت بهِ صوابًا أم مجرد تهيؤات، حينما لاحظت القلق والتوتر في عينيه وهما يدخلان باب طوارئ المستشفى، وكيف تعامل مع الموقف بشدة وحزم، وطلب أن يُحضروا طبيبًا في أسرع وقت، ليفحصها ويرى سبب ما أصابها من فقدان وعي، كما رأت في عينيهِ الابتهاج والسرور عندما طمأنه الطبيب على صحتِها، وأن الحالة الطارئة التي ألمَّت بها كانت مجرد إرهاق وتعب، وتحتاج إلى راحة لمدة يومين، مع أخذ بعض الفيتامينات والأدوية المقوية، عند باب منزلها وبعد قيادة دامت أكثر من عشرين دقيقة، لم ينبس خلالها بأي كلمة سوى أن راح يحمد الله على سلامتها، قال لها وثغره يفتر عن ابتسامة غريبة، لكنها في الوقت نفسه جذَّابة:

- أرجو ألَّا تتغيَّبي عننا كثيرًا؛ فقد سمعتُ أنكِ شُعاع الحياة في مقر العمل!

بعد قضاء يومٍ كامل على جزيرة القطن، الذي أمضته بين سُبات عميق بِلا قرار، تقاطعه مازحةً بعضُ لحظات اليقظة، وأحلامٌ كان بطلها الفارس الهمام الذي حملها بين ذراعيه، وهو يمتطي معها الحصان الأبيض، قافزًا بِها فوق أسوار قصرٍ تسكنه الأشباح، معتم الإضاءة وخافت الأنوار، أسود اللون، موحش، يهيمن على مناخهِ الكآبة وضيق الأنفاس، ظل الفرس يركض مسرعًا على طريق له ألَق، قد امتلأ بالفسيفساء المكسوة بألوان تبهج نظر الإنسان والحيوان، معبرة في تمازج فريد عن اختلاط ماء البحر الأزرق بصفائه وبرودته بحمم البركان اللافحة المحرقة، ولم يتوقَّف الجواد الجامح إلَّا عند جُبٍّ قد عمر بالماء الغزير، وحينها رأت انعكاس وجهها الذي تظهر عليه معالم التيه والتعطُّش للأمان على سطح الماء اللامع المصقول، كان القمر قد انتصف في السماء، معلنًا أنه أكمل تحوله

ليكون بدرًا، وليرتقي عتبات الوجود إلى قاعدة عرش أبيه «آمون»، «فخونسو» إله الشباب والقمر لا يفتر في تبدُّل أطواره، كما في الأساطير المصريَّة القديمة، وما إن أشاحت بوجهها مبعدةً نظرها عن البئر حتى وقعت عيناها على بقايا فيء الفارس ومغانمه، على الرغم من أنه كان قد اختفى خلف التلال!

فتحت عينيها ببطء لتجد الشفق قد أذن برحيله، لم تدرك ما حولها، وألقت برأسها على الوسادة لتعود إلى الأحلام، لكنها أحلام اليقظة تلك المرة، وبدت حائرة بين الحكمة من تقاطع الطرق والتقائها، وبين شعورها الذي استعمر قلبها دون تمهيد أو تلميح، وراحت تفكر ملقيةً العتاب على الضلال الذي اجتاح أحاسيسها، وملأ كيانها كحقيقة واقعة، وهو ليس سوى أضغاث أوهام، وفي غمرة تشتُّتها ظلَّت مستلقيةً على السرير، تُسائِل عقلها الذي جمد من قلَّة ما ناله من اهتمام مَن حولها وتقديره:

- ما الذي أصابني؟! أيُعقل أنني عُدت إلى سن المراهقة الطائشة، أم أن فؤادي لا يقوى على العيش وحيدًا بعيدًا عن خفقات الحب؟!

وقبل أن يدب فيها النشاط، الذي أحيا فيها بعض الأحاسيس، وأوقد إرادتها حتى تملك ما يكفي من القوة لتفارق مضجعها، قررت ألَّا تنصاع، ولا تنجرف خلف أهوائها، التي لطالما كادت تودي بها إلى الهلاك والدمار!

- «أيمن»، ماذا حل بك يا ولدي؟ منذ أن عدتَ من العمل وأنت لستَ على ما يُرام، لا أراك إلَّا شارد الذهن، هل أنت بخير؟!

للحظةٍ تمسَّك بنصيبه من الصمت، وهو يتأرجَّح بين حالة من الوعي واللاوعي، ثم أفصح قائلًا:

- إنني بخير يا أمي الحبيبة، لا تقلقي، إنه مجرد ضغط في العمل، استلزم مني كثيرًا من التفكير، ولذلك بدوتُ لكِ شاردًا.

هيهات يا «أيمن»! من تحاول أن تخدع: والدتك الغالية، أم تحاول أن تغرِّر بخاطرك الذي بات جريحًا مضيعًا بين ماضٍ يضم أجمل الذكريات، وأحلى اللحظات واللمسات والتنهيدات الحارَّة، وحرارة الحب التي هي أسعد ما يمكن أن يحيا بهِ إنسان، ومزيج عشق ووله وصبر وتحقيق طموح، وبين حاضر لا يحمل في طياته سوى الخذلان، ومكابدة الألم، وقلب حائر غشيته العتمة والظلام، ولم يعُد متأكدًا إن كان سيخفق ثانيةً لمن أسرت خفقاته، لعشقهِ الأول وعذابه الأول، أم أنهُ اكتفى وفاض جروحًا وصديدًا، بعدما تجرَّع سُمَّ الفراق والطلاق؟!

ظل واجمًا هائمًا بين الكواكب والمجرات، ولم يجد لنفسه مستقرًّا سوى على أريكة «لورا أشلي» إنجليزيَّة بجلد بني اللون، متأملًا في امرأة لا يعلم سقطت من أي مجرة: شعرها الغجري، ورموشها التي تنسدل على عينيها كغطاء كثيف، وحاجباها الحادان اللذان أكملا لوحة جمالها، عاين مرة أخرى منظرها وهي غائبة في نوبة خفيفة، وما إن أفاقت

وفتحت، ما أبدع خالقها، من عينين، إلَّا ورأى حور عينيها واتساعها، وفورًا تبعثرت جوارحه واستغلق عليه أمره للحظات، لا يعلم لماذا!

وتملَّص من التأثير الطاغي متظاهرًا بانشغاله بالبحث عن بعض الملفات، ولكن شيئًا ما بداخلهِ غلبه وانتصر عليه، وجعله يعيد الكرَّة، وينظر مباشرةً في عين أجمل من رأى من بشر، مضت عليه ثوانٍ راح يتمنَّى فيها، بينه وبين قلبهِ المشغوف، أن لو كانت دهرًا، ولم تكَد تنفد إلَّا وتسقط الفاتنة مغشيًّا عليها بين يديه، آهٍ منك أيُّها القدر!

ماذا تريد مني؟ ألا يكفيك ما نال قلبي من تمزُّق جرَّاء تحطُّم ميثاق قد مُزق وُغُدِر بكل بنوده وعهوده الغليظة؟!

وعلى الرغم من إرادته التي تحاول قمع رغبته، فإنه استمر في اجترار الماضي السعيد القريب جدًّا، وتذكر كيف مد يده ليناولها كأس ماء، وكان يخشى أن تفضحه يداه، فقد كانت ترتجف خفية مقاومة آلاف الرعشات، التي

جاهد لئلا تطفو على السطح، فتنتبه المرأة إلى ما ألمَّ به، وتدرك ما يخفيه عنها بقدر..

ماذا يا «أيمن»؟!

لماذا هذا الرجفان؟ ولِمَ تلك الرعشة، ومنذ متى ذلك التلعثُم! كان يخاطب نفسه وهو مشغول الذهن بفتاة لم يكُن من المقرر أن يبقى بجوارها إلَّا دقائق معدودة، لكن شاءت الأقدار أن تمتد إلى ساعات، ليراها وهي في أشد الحالات مدعاةً للرثاء، مستلقيةً على السرير الأبيض، وفي يدها اليمنى قنينة موصلة بأنبوب تغذية، وفي منخارها جهاز أكسجين، يضخ لها نسمات الحياة وعطايا الروح، وعندما أغمضت عينيها باتت كالملاك النائم على تبَّة من السحاب الأبيض النظيف!

حملها في السيارة متخذًا مظهر الفارس النبيل، أقلَّها إلى بيتها غير عالِمٍ من تُراه يشاركها فيه، وتركها تدخل راغمًا؛ إذ لم يكُن إمساكها أو دعوتها إلى البقاء من حقه في تلك

الساعة، وما إن ذهبت شاكرةً، وأوصدت باب منزلها، إلَّا وانطلق بِلا هدف يتجوَّل بين الطرقات، لا يريد أن يصل إلى هدفه على غير استعداد، ولا يود في الوقت نفسه أن تستغرقه المسافات، فيضل طريقه ولا يجد مرساة يُمتِّن عليها سفينته.

بعد أن تناول وجبة العشاء على غير شهية، وقبل أن يسبل عينيه ويستسلم لملذات النوم، زجر خواطره وعنَّف نفسه قائلًا:

- لا حيرة ولا أمنيَّات؛ فقد رست سفن الحب في ميناء أمي وابنتي فقط!

في الصباح الباكر، وبكل حيويَّة ونشاط، بدأت «ديجة» تتنقَّل بين الأقسام لكي تلقي تحية الصباح على زملائها كدأبها، حتى انتهت إلى مكتب أستاذة «ليلى»، رئيستها في العمل، التي بدورها ما إن رأتها حتى وقفت بسرعة، واحتضنتها قائلة:

- ألف حمد لله على السلامة يا «ديجة»، طمئنيني على صحتكِ، هل أصبحتِ على ما يُرام؟ حقًّا لقد تملكني الخوف والقلق حيالكِ.

- الحمد لله يا أستاذة «ليلى»، أصبحت أفضل بكثير بعدما أخذت قسطًا من الراحة، لكن الحقيقة أنا في قمة الخجل والحرج منكِ؛ لأنني لم أقُم بالمهمَّة الموكلة إليَّ مِن قِبلك!

- لا داعي للاعتذار؛ فصحتك لدينا أهم من أي عمل، كما أن الأستاذ «أيمن» قد تفهَّم الأمر، واتصل أكثر من مرة ليسألني عن وضعكِ الصحي، وأرسل باقة ورد متمنيًا لكِ الشفاء العاجل!

ما إن دخلت «ديجة» مكتبها، وقبل أن تبدأ تشغيل جهاز الكمبيوتر، حتى وجدت نفسها تقبض بيدها اليمنى على سمَّاعة الهاتف، وقبل الضغط على زر آخر رقم في تحويلة مكتب الأستاذ «أيمن»، تجمَّدت أصابعها، وسرحت بخيالها للحظة، ثم أعادت السمَّاعة إلى موضعها،

كانت دوَّامة من التفكير تلفها داخلها، وتهرس تهوُّر خواطرها هرسًا لا يرحم:

- ما بالي أنا؟ وما هذه الحماقة التي كُنت سأقترفها؟! أهذا هو القرار الذي اتخذته بالأمس؟!

فجأة يقطع حديثها الذاتي وصوت عتابها لنفسها صوت رنين هاتف مكتبها، وما إن أجابت إلَّا وبدأت تسمع صوتًا عميقًا ودافئًا قائلًا:

- حمدًا الله على سلامتك، لقد أنرتِ مكتبكِ، وأنرتِ لنا مقر العمل.

تلعثم اللسان، وتبعثرت الكلمات، وانحبس صوتها لثوانٍ، ثم أفرخ عنها لتجيبه بصوت متهدج:

- الله يسلمك.

وصمتت للحظات، ثم استطردت حديثها:

- قد بلغني سؤالك عن صحتي، فشكرًا لك، وشكرًا على الورد اللطيف، وعلى موقفك الذي لن أنساه ما دمتُ حيَّة،

حين أخذتني إلى المستشفى، وبقيت معي، ولم تتركني حتى أعدتني إلى منزلي.

- لم أفعل شيئًا يستوجب الشكر يا أستاذة «ديجة»، فهذا أقل واجب تجاه زميلتي في العمل.

تمتمت مبتسمة من خلف سمَّاعة الهاتف، وقالت:

- ما قمتَ بهِ يا أستاذ «أيمن» لم يقُم به من قبلك أحد، وسأظل شاكرة لمعروفك مدى الحياة.

- لا داعي لهذا القول، ودعينا نحدد موعدًا لإنجاز مهام العمل، هذا طبعًا إن كنتِ تشعرين أنكِ في أحسن حال، وإلا فلنؤجله إلى وقت آخر.

- بالعكس، أنا في أتم الاستعداد، ولكن لو كان في استطاعتك أن تمهلني إلى الغد، فسوف أكون شاكرة لك.

- حسنًا، موعدنا غدًا في تمام الساعة العاشرة صباحًا.

- حسنًا، إن هذا شرفٌ لي، وستجدني إن شاء الله أول الحاضرين.

ابتسمت «ديجة» عندما أغلقت خط الهاتف الأرضي، استسلمت للذكريات الطيبة القريبة جدًّا، وراحت تستذكر يوم أمس بكل أحداثه، ولم يمضِ كثير من الوقت قبل أن تتلقى اتصالًا آخر، مكالمة دامت لدقائق، ومن كانت تتحدث معه هذه المرة هي مسؤولة دار رعاية الأيتام، التي قضت ردحًا من عمرها بين جدرانها، والتي بدورها طلبت منها أن تشارك بإلقاء كلمة ترحيبيَّة وتعريفيَّة عن منسوبي المؤسَّسة وإنجازاتهم أمام مسؤولين وقادة اجتماعيين سيزورون الدار، وقد وقع الاختيار عليها لعدة أسباب، أولًا: لأنها ابنة الدار، وثانيًا: لما تمتلكه من عدة مميزات، أهمها: إتقانها فن الخطابة.

كانت الدعوة محبَّبة إلى نفسها، على الرغم ممَّا تحمله لها من ذكريات محمَّلة بالمرارة والألم، لكن نداء الواجب لم يكُن من الممكن تجاهله.

في يوم الزيارة المحدد، اهتمت «ديجة» بهندامها، وبدت في خير حال، حرصت على أن تظهر بمظهر المرأة القويَّة التي حققت ذاتها، وتأتي الآن لتقدم نفسها، لا كمجرد خريجة من خريجي الملاجئ ودور الرعاية، بل امرأة تغلَّبت على أشد المِحَن، وخرجت من ظلمة المؤسَّسات الاجتماعيَّة بكل مظالمها، والمآسي التي تحتشد بين جدرانها، إلى الأضواء المبهرة لعالم النجاح المهني والعائلي، استُهلَّ الحفل بعدة فقرات، غلبت عليها صفة الرسميَّة والتحفُّظ، ثم جاء وقت إلقاء الكلمة الترحيبيَّة، باسم مديرة الدار، وكذا باسم نزلائها وخريجيها.

وما إن انتهت «ديجة» من إلقاء كلمتها التي تألقت بها وجذبت الأسماع والأذهان، إلَّا واستدعتها رئيسة الدار كي تشكرها على إبداعها وحُسن حضورها اللافت للأنظار قائلة:

- لن ننساكِ في زيادة المكافأة الشهريَّة؛ فأنت تستحقينها عن جدارة!

صمتت «ديجة» لحظة مِن وقع الصدمة، وحدجت رئيسة الدار بنظرة استنكار واستغراب قائلة:

- عن أي مكافأة تتحدثين؟ أنا لم أتسلّم في حياتي أي مبالغ مالية من الدار!

تلعثمت الرئيسة، وشعرت بحرج شديد، وحاولت تغيير دَفَّة الحديث، لكن فضول الثانية لم يرحمها، وضيَّقت عليها الخِناق حتى عرفت منها كل التفاصيل.

في السيارة، في طريق العودة للمنزل، استشاطت غضبًا، راحت تحدث نفسها، وهي تصرم أسنانها غيظًا:

- أيُعقل بعد كل هذه السنين أن تخفي أمي عني موضوع الراتب الشهري الذي تصرفه لي الدار، وهي تعلم مدى الحرج الذي ينتابني وأنا أقبض منها مصروفي الذي بالكاد يكفي نفقاتي ونفقات ابنتي، وتدرك تمام مدى عزة نفسي وكرامتي، وكيف أنني لم أذُق طعم الراحة والنوم وأنا أبحث عن عمل كي أخفِّف عنها عبء المسؤوليَّة؟ كان قولها

دومًا: لا تخشي شيئًا، فأنا سأنفق عليكِ، وأتحمَّل مسؤوليتك كما هو عهدي منذُ طفولتك!

وتذكرت اعتراف مسؤولة الدار وكلامها أنه عندما تُطلَّق الفتاة وترجع لأمها بالتبني فإن الدولة تُنفق عليها، وتخصِّص لها مبلغًا ماليًّا كي يعينها على مشقات الحياة:

- بلدي، وطني هو من يدفع ليمنع عني مذلَّة الحاجة والسؤال، وأنتِ يا أماه تنسبين الفضل كلهُ لنفسك؟!

ما إن دلفت «ديجة» إلى المنزل، ورأت «وهيبة» أمامها، حتى ابتدرتها ملقيةً بكل التساؤلات التي جالت بخاطرها، وهي عائدة تقطع الطرقات من دارٍ إلى دار. حاولت «وهيبة» إنكار الأمر في بادئهِ، لكن بعد طول تهرُّب وتنصُّل من الحقيقة، أقرَّت بالأمر على مضض!

ضحكت «ديجة» بأعلى صوتها على غير العادة، ثم أحسَّت بالحرج عندما لاحظت أعين الناس تراقبها، وهي

جالسة مع رفيقاتها في أحد المقاهي، فتعليق صديقتها «أمل» أضحكها عندما قالت:

- مَن سيكون الحظ حليفه في هذا العيد ويتقدَّم محاولًا ردك إلى عصمتهِ من الزوجين الحالمين السابقين؟!

دُعابة مُضحكة لكنها حقيقيَّة؛ حيث لا يفتأ «نواف» محاولًا لمَّ شمل أسرته تحت سقف واحد، لم يمل أو يكل وهو يفتح الموضوع مع أم ولده قُبَيل كل عيد فِطر، مبررًا ذلك برغبته في الحفاظ على نفسيَّة ابنهما «سلطان»، لكنه في قرارة نفسه يريدها لسبب آخر بعيد كل البعد عمَّا يعلنه أمامها من مبررات، يريدها لإشباع رغباته الجنسيَّة؛ ذلك أنه لطالما كانت «ديجة» في خياله وأحلامه مثيرة وشهوانيَّة، وتشبع رغباته لدرجة الجنون، ذلك الشعور الحار الذي جرَّبه، والمُغاير لما اعتاده مع زوجته الحالية، التي تزوجها مسيارًا، ولا يجمعهما سوى فعل الواجب من غير أي إحساس بالمتعة أو الشهوة، لكن «ديجة» كانت ترفض بشدة وباستمرار أن تعود إلى الجحيم الذي سجنها

فيه، والذي لا تكاد تصدق حتى اليوم أنها هربت منه في ضوء النهار، ولم تفتر بأن تُسمعهُ كل مرة الإجابة نفسها:

- عِش حياتك مع زوجتك المسيار، وحاوِل أن تجعل زواجك رسميًّا، وأكمِل المسيرة معها بعيدًا عني.

بالصدفة، أو بترتيب من القدر، يأتي «هادي» كذلك في السنة التالية، ليقدم العرض السخيف نفسه، في الوقت نفسه الذي قدم فيه «نواف» طلبه في السنة الماضية، أو بالأدق في عيد الفِطر الماضي، لكن بصورة أكثر سوءًا وفجاجة؛ فهو يريدها أن تعود لتتربى «يارا» معها ومع أبيها، غير مبالٍ بالجراح التي سبَّبها لها من خيانة وغدر مع أعز صديقاتها، وغير مكترث بخروجها وانشغالها بتوفير لقمة العيش، التي لم ولن تكون رحلة بالسهولة واليُسر اللذين يتوقعهما، ويتبجَّح بعين وقحة، ويطلب منها المشاركة في تربية ابنتهما «يارا» التي لا يعرف عنها أي شيء، ولا يكاد يتذكَّر ملامحها إلَّا من حينٍ إلى آخر، يريد أن يتشاركا تربية البنت، دون أن يُلزِم نفسه أو يُحمِّلها أدنى

مسؤوليَّة، ما جعله يهوي من عين «ديجة»، وكذلك لم يعُد له أي رصيد في قلبها؛ فهي لا تريد عاشقًا مفتونًا، يغمرها بالكلام المعسول وحسب، بل هي تريد رجلًا يتحمَّل معها معاناة الحياة ومصاعبها.

بدأت تشرح لـ«أيمن» أهم الأعمال والمهام التي تحقَّقت على أرض الواقع، مستخدمةً شرائح العرض المرئيَّة التي تحتوي على منجزات إدارتهم من مهام مُنفَّذة بطرق تحليليَّة وإحصائيَّة، وتطرَّقت إلى العوائق ومسببات التقصير في الأداء، التي تواجههم من حين إلى آخر، وقبل أن تتطرَّق إلى سرد النتائج والتوصيات، استأذنت أستاذة «ليلى» للخروج من الاجتماع، حين تلقَّت على هاتفها الخلوي مكالمة بدت مهمَّة وعاجلة، فذهبت وهي تشير بيدها نحو «ديجة» آمرةً بمتابعة العرض وعدم التوقُّف، لكن ما إن خرجت المديرة حتى شعرت الأخيرة بارتباك وحرج غريب ينتابها، لم يكُن في غرفة الاجتماعات سواها هي و«أيمن»، والمقعد الفارغ المبطن بالجلد الأسود الذي

كانت تشغله «ليلى» منذ لحظات، ظلَّت «ديجة» واجمة لحظات، ولا يُسمع في غرفة الاجتماع إلَّا صوت أنفاسها، وكانت عيناها مثبتتين على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، في بادئ الأمر كانت تتوجَّس خيفةً أن يراقب «أيمن» نظراتها، فيعلم ما أصابها، لكنها احتمت بستار الإضاءة الخافتة للغرفة، واكتفت بإضاءة جهاز العرض، فلم تشعل أي أنوار إضافية، وبعد تردد رجعت تستكمل ما بدأته من عرض حتى انتهت تمامًا، فأضاءت أنوار الغرفة وقالت:

- أتمنى أن ما قمنا بهِ من عمل قد نال استحسانكم.

أجابها «أيمن» مبتسمًا:

- أنتِ تستحقين فعلًا الإطراء الذي يتردد عنكِ في أرجاء المكان؛ فقد أبدعتِ فيما عرضتِه من تقارير إنجاز مهام، ولقد دونتُ جميع الملاحظات التي أشرتِ إليها عن العوائق والمشكلات التي تسبَّبت في تعطيل بعض الأعمال، وسوف

أرفع تقريري إلى الإدارة العليا للنظر في تلك المشكلات والبتِّ في أمرها في أسرع وقت!

كان يتكلَّم بصيغة رسميَّة ومتحفظة جدًّا، لكنه وقبل أن يشرع بالرحيل، وجد نفسه يستأذن منها في الحصول على رقم هاتفها النقَّال، لمحادثتها إن احتاج إلى أي استفسار طارئ.

عاد «أيمن» إلى مكتبه شارد الذهن، لا يتذكَّر سوى عذوبة صوتها، وسِهام بريق عينيها اللتين كُلَّما حاول اصطيادهما هربتا منه واستقرتا بين شرائح العرض، أُعجب بحدة ذكائها وطلاقة لسانها، حتى وقفتها كانت تتميَّز بثبات لا تمايل فيه أو ارتباك، طفق يكتب تقرير زيارته إلى إدارة «ديجة»، لكنه كُلَّما كتب سطرًا محاه وبدأ من جديد، فقد تملَّكه إحساس مهيب ومخيف، إحساس تذوقه من قبل ويعلم أدق تفاصيله، فانتابه القلق من ذاك الإحساس العميق، وبدأ يشعر بالضيق؛ فقد طال النهار، وتباطأت عقارب الساعة عن الحركة معلنةً العصيان وعدم الإذعان

لرغبته الجامحة في أن يكرَّ الوقت بأسرع ما يمكن، لم يفعل شيئًا، بعد إرسال البريد الإلكتروني الخاص بتقرير الزيارة، إلَّا مراقبة ساعته، والنظر إلى حساب الساعات والدقائق فيها.

بعد الانتهاء من يوم عمل طويل وشاق، عادت إلى المنزل، قبَّلت يدي أمها، ومن ثَمَّ تخففت من ثيابها وعلَّقت عباءتها على المشجب، وقد كان الغضب مرتسمًا على ملامح «وهيبة»، غير أنها لم تنطق بكلمة، كانت «ديجة» مرهقة ومتعبة، لكن ما إن جلست على مائدة الطعام إلَّا وبادرتها ابنتها «يارا» بالسؤال عن سبب تأخُّرها، فأجابتها متعللةً بضغط العمل وزحام الطرقات الناتج عن حادث تصادم أدَّى إلى تعطيل حركة السير. بعد الغداء أخذت حمامًا فاترًا، ثم استلقت على سريرها وهي تضم الوسادة إلى صدرها، وقبل أن تدخل في غياهب النوم فاجأها رنين جوالها، فتضجرت وشعرت أنها تختنق، مَن المزعج الذي يتصل في مثل ذلك الوقت؟! نظرت إلى

عقارب ساعة الحائط فوجدتها لم تتجاوز التاسعة مساءً، بتثاقل وإرهاق استدارت بجسدها لتصل إلى الجوال، وما إن رأت على شاشته اسم المتصل، حتى دبَّ فيها نشاط غريب:

- ألو.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- أهلًا وسهلًا.. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- أنا «أيمن»، أرجو ألا أكون قد أزعجتك باتصالي، أو أن يكون الوقت غير مناسب.

- أبدًا، لا يوجد أي إزعاج، والمساء لا يزال في أولهِ.

- لا أدري ماذا أقول، ولا أعلم ماذا أريد، لكن تملَّكتني رغبة الحديث معكِ.

نعم، ما زال الليل في بدايته، لكن «ديجة» و«أيمن» لم يذُوقا طعم النوم إلَّا لسويعات، بعد الانتهاء من الأحاديث الطويلة التي استمرت بينهما، والتي لم تخلُ من بعض

الاعترافات، واستغرقت من عمر الزمن وقتًا ليس بالقليل، لم ينتبها إلى الزمن إلَّا عند سماع صوت أذان الفجر، فلم يستطِع «أيمن» النهوض والتحرُّك من أجل الوضوء والاستعداد للصلاة، فقد سلبه ما قيل من أحاديث محملة بالشغف واليأس، والأمل والألم، والطموح والانهزام - سلبه كل قواه، فلم يحس بنفسه إلَّا وهو في حالة نعاس شديد، فاحتضن وسادته واستسلم تمامًا للنوم!

لم يتوقف المنبه عن الدق حتى أقفلته، حينها وثبت «ديجة» بخفَّة من فوق سريرها، لتجهِّز نفسها وتستعد للذهاب إلى العمل، وقفت أمام دولاب ملابسها كأنَّها تمثال جامد، لكن الروح كانت حيَّة داخله، وراحت تتأمَّل ثيابها متنقلةً من اختيار إلى آخر، حتى استقرت على بنطلون جينز ماركة «جيوردانو»، وقميص أبيض شفاف عليه شعار ماركة «بي بي»، وبعد أن أتمت ارتداء ثيابها تأمَّلت قوامها للحظات في المرآة، وعرجت بخيالها إلى فوق السحاب تناظر البكور والغدوة، ولكنها ما إن عادت إلى أرض الواقع

حتى وجدت نفسها خلف مكتبها، كانت شفتاها بالكاد تلامسان فنجان القهوة، لكن رنين هاتف منعها من تناول رشفتها الأولى، فردَّت مسرعة بأمر خفي من قلبها، وكأنَّها تعلم شخصيَّة المتصل مسبقًا، لم يخِب رجاؤها حين سمعت صوتهُ الدافئ وهو يهمس في أُذنها بأجمل صباح، وبعد تبادل التحية العبِقة التي تحمل في طياتها تلميحات بالاشتياق واللهفة، أنهيا الاتصال ليعودا إلى العمل، استقرت «ديجة» على مكتبها، وطفقت تستمع إلى «فيروز» وهي تعمل، لكن خيالها كان قد رحل مسافرًا إلى عالم آخر، عالم تنتشر فيه رائحة الياسمين وورود التوليب الأحمر، وبعض زهور المارجريتا الصغرى، وبجوارها وردة الزنبق الأصفر، رمز الحلم والتخيل، أما قلبها فكان موزعًا بين الظنون والوجيب، فمثلما أدماه الماضي جعلهُ يهاب الحاضر، حتى إن كان طالعه مشرقًا وبوادره واعدة.

مضت ثلاثة أشهر، مليئة بالليالي الساهرة على الهاتف، وباللقاءات التي لم تخلُ من الاعتراف مِن قِبل الطرفين، والإقرار بأنهما تحت رحمة الحب الذي ختم صكًّا يحمل في مضمون سطوره أنهما عاشقان، وأن قاضي الغرام سيحكم عمَّا قريب بسجنهما في قفص لا فِرار منهُ، جهارًا، أمام الملأ وشهود العيان.

في إحدى ليالي الدُّجى، التي يترنَّم فيها السمر بين العاشقين، بادر «أيمن» بطرح فكرة قضاء ليلة رأس السنة والاحتفال بِها في مدينة شرم الشيخ.. رحبت «ديجة» بالفكرة وقد غمرتها السعادة وأجابت دعوته قائلة:

- إنني في قمة سعادتي لاهتمامك بقضاء ذلك اليوم معي، بعيدًا عن جميع الضغوط والواجبات، فعلًا أنا في حاجة إلى إجازة أنسى بها كل معاناتي، وأجدِّد فيها طاقتي.

رتَّب كل إجراءات السفر، من حجز تذاكر الطيران وغُرف الفندق، وكذلك ترتيب خط السير ووسائل المواصلات التي سيستقلَّانها، ولم ينسَ مراسلة شركة

متخصصة في السياحة، لتعد لهما برنامجًا سياحيًّا مميزًا، يجعلهما يطوفان في أرجاء المدينة، مستخدمين عدة وسائل وطرق، لإضافة عنصري التشويق والإثارة، وقد حرص على التواصُل مع تلك الشركة تحديدًا بتوصية من «ديجة»، التي كانت لها تجرِبة سابقة معها، وبالأخص مع السائق «محمد» الذي ما زال على تواصُل معها من حين إلى آخر، ما يدعوها إلى أن تكرر الزيارة.

مهَّدت «ديجة» لأمها «وهيبة» أمر الرحلة، متعللةً بضرورة حضورها دورة تدريبيَّة خاصة بالعمل في مدينة شرم الشيخ، ولم يكُن من الأم إلَّا الرضوخ والموافقة، مع إبداء تحفُّظها وتريُّثها للحظة قبل إعلان موافقتها، بسبب قلقها وحِرصها على ألَّا تبقى «يارا» وحيدة، لكن «ديجة» لم تترك لها مجالًا للتفكير، فقالت إنها لن تغيب عن المنزل سوى أيام معدودة، وتوسلت إلى «وهيبة» بأن تعتني بابنتها «يارا» جيدًا، وافقت الجدة متمنيةً لابنتها التوفيق والسداد.

ظلَّت «ديجة» تحسب الساعات والأيام، وقد أعدت لها العُدة من تجهيز حقائب قد امتلأت بالفساتين وقطع الملابس الأخرى، لا سيَّما أردية السباحة بموديلاتها المختلفة، وبقيت تترقَّب بلهفة موعد السفر، وتُسر في خاطرها كل الأماني التي ترجو أن تحياها مع العاشق الولهان الذي بعث بداخلها الطفلة التي نسيتها منذ زمن، وأنعش مراهقة كم خشيت مِن قبل مِن أن يأتي مَن يوقظها ويحييها، فلا تذوق بعدها طعم الهدوء والرخاء.. فعواصف المراهقة أحيانًا لا تبقي ولا تذر.

- ماذا تقول يا «أيمن»؟! تريدنا أن نلغي رحلتنا إلى شرم الشيخ؟! محال، لن ألغيها أبدًا!

- «ديجة»، استجد لديَّ ظرف، دعينا نؤجلها فترة بسيطة، ومن ثَمَّ أعدك بأن نسافر معًا إلى أي مكان تريدينهُ.

- مستحيل، لم يكُن من السهل إقناع أمي بهذه الرحلة، كذبت عليها بأنها مهمَّة عمل، وغير ذلك أنا فعلًا أحتاج إلى إجازة من كل شيء، لأسترد طاقتي وأجدِّد من روتين حياتي.

- حبيبتي، أقدِّر ظروفك واحتياجاتك، وأعتذر إن كنتُ سأضعكِ في موقف محرج أمام والدتكِ، صدِّقيني كم وددتُ ألَّا أؤجل السفر، لكنني مضطر لذلك.

- لا وألف لا، سأسافر، حتى لو اضطررت للقيام بالرحلة بمفردي.

- أيُعقل أن تسافري من غيري؟ أليس لي خاطر عندك؟!

- أُيعقل أن يكون لديك شيء أهم من قضاء ليلة احتفال رأس السنة معي؟!

أغمضت عينيها وهي جالسة على مقعد الطائرة، مستندةً برأسها على مقدمة المسند الخلفي ومتظاهرة بالنوم، وقد غمرها إحساس بالسعادة لوجود «أيمن» بالمقعد المجاور لها، ملقيًا وراءه كل أعذار الغياب فقط

ليرضيها، وما إن أقلعت الطائرة محلقةً في الجو حتى بادرت بفتح عينيها، وأمالت رأسها على كتفهِ بِدلال، وقالت بِغنج وهي تحدق في عينيه:

- لن تندم على هذه الرحلة، وسوف أجعلك أسعد رجل في الوجود.

في بهو الفندق، كانت «ديجة» جالسة مع «محمد»، السائق المرافق لهما في أثناء رحلتهما، وقد طال انتظارهما، مبتسمة من حديثه، وهو يُذكرها بأيام آخر رحلة لها في شرم الشيخ، التي كانت برفقة ابنيها، حينها عاد «أيمن» بعدما انتهى من إجراءات دخول الفندق، وتسلُّم مفتاحي الغُرفتين الخاصتين بهما، استأذنا «محمد» لحظة حتى يتسنَّى لهما تجهيز أنفسهما للخروج وتناول طعام الغداء. قادهما الخدم إلى غرفتيهما، وكانتا متجاورتين، انبهرت «ديجة» وهي تدخل من باب غرفتها بالفندق، حين رأت ورد التوليب الأحمر منتشرًا في جميع أنحاء الغرفة، وبالأخص شكل القلب المصنوع من الزهور، الذي احتل منتصف

السرير ذي اللون الأبيض، وكذلك على أرضيَّة الحمام التي لا تكاد تراها من ضوء الشموع الخافت، التي ثُبِّتت متناثرةً على الأديم اللامع المصقول، وراحت تضحك خجلًا عندما قبضت على إحدى البالونات المنتشرة في كل مكان، ووجدتها قد نُقش عليها حروف اسمها، وعبارات أخرى (أحبكِ.. نبض الحياة.. سر ابتسامتي) وغيرها كثير من جُمل الغزل التي تعشق كل فتاة سماعها، لم تستطِع أن تقاوم دموع فرحها، وبغتة وجدت «أيمن» يحتضنها من الخلف قائلًا:

- كم تمنيتُ أن أرى تلك الابتسامة!

استدارت ببطء، ولم تحس بنفسها إلَّا وهي تطبع قبلة شكر وحب على خدهِ، ثم ارتمت في أحضانهِ لدقائق لا تعلم في أي أرض تكون، ولا في أي سماءٍ تهيم!

لم يشعرا بأنفسهما وهما يلتهمان الطعام بنهم؛ فمطعم «فارس» للأسماك لا يُقاوَم، ولم تخلُ مائدتهما مِن ألذ الأصناف: سمك البوري والبلطي والدنيس، وبالتأكيد الجمبري المشوي، والباربون، والاستاكوزا، وقليل من الكاليماري، وقبل كل تلك الأصناف حساء ثِمار البحر الفاتح للشهية، أُتخما بالأكل حتى لم يستطيعا الحراك، وراحا يضحكان على منظرهما وهما يتأملان بقايا الطعام، وعلى الرغم من شعور «ديجة» بِالثقل من جرَّاء شهيتها التي أقبلت على الطعام فجأة، فإنها لم تستطِع تأجيل رغبتها في التجوُّل في أرجاء المدينة، ورؤية مشهد غروب الشمس وهي تهوي إلى قلب البحر، كانت تشعر بفرح وسعادة يملآن قلبها، وهي تراقب منظر الغروب من مقهى «فرشة» المرتفع فوق هضبة «أم السيد»، وقد أحست برعشة بسبب مرور نسمات باردة لامست وجنتيها.

ما إن غرب شُعاع الشمس، وانتهى «أيمن» من تدخين أرجيلتهِ بطعم التفاحتين الفاخر، وشرب آخر رشفة مِن كأس الشاي الأخضر، حتى تملَّكه إحساس بالفتور والكسل والرغبة في النعاس، شاركته «ديجة» إحساسه، خصوصًا بعد عناء الرحلة، والتأخير لساعات في المطار.

عادا إلى الفندق ليأخذ كلٌّ منهما سبيله إلى غرفته، متمنيًا للآخر ليلة سعيدة، وأحلامًا مليئة بالحب الذي يتشاركانه فيما بينهما.

لم تنتبه الشابة لنفسها إلَّا وهي تستيقظ على صوت هاتف الغرفة يدق بإلحاح، فتناولت السمَّاعة مجيبةً بصوت يملؤه النعاس:

- نعم؟!

- أحلامًا جميلة يا أجمل وردة.. صباح الجمال.

احمرت وجنتاها خجلًا من تشبيهه، وبصوت ناعم يكسوهُ الدلال ردت:

- أهلًا حبيبي، صباح النور.

- ألم يحِن موعد الاستيقاظ لتناول وجبة الإفطار؟

صُدمت لحظة وقالت مندهشةً:

- أيُعقل أنني نمت كل هذا الوقت؟! سامحني، سأجهز نفسي في الحال.

- لا بأس حبيبتي، سأمر عليكِ بعد عشرين دقيقة لأصحبكِ إلى المطعم.

لثوانٍ أسبلت أهدابها غير مصدقة ما حدث لها، تذكرت كيف أنها بمجرد أن دخلت غرفتها حتى ألقت بجسدها على السرير وراحت في سبات عميق، وتنبَّهت حينها أنها ما زالت بالملابس نفسها التي قضت بها السهرة، فنهضت من مكانها، وأخذت حمامًا فاترًا على عجل، وخرجت لترتدي

ملابسها: بنطلون جينز «كالفين كلاين» كحلي اللون، وقميص أبيض شفاف من الماركة نفسها، ثم بدأت تضع لمساتها الجمالية من كحل وطلاء شفاه.. وما إن شرعت في رفع شعرها الغجري لتعقصه من الخلف، حتى سمعت صوت طرقٍ على الباب.

كان هو، يدعوها إلى مرافقته على الإفطار، لم تمر لحظات إلَّا وكانا معًا مرة ثانية، يتشاطران حلاوة الحب والقرب، مغموسة في صحائف الطعام الشهي، ومحلاة بالسكر وفصوص الفاكهة الشهية!

على مائدة الطعام قال:

- حدثيني، أكان حُلم ليلتك رومانسيًّا أم أحداث شغب؟

وغمز بعينه بخبث.

ابتسمت «ديجة» مجيبة:

- حقًّا لا أعلم ماذا حصل لي بالأمس، كُنتُ قد رتبتُ في بالي مخططًا للسهر معك، لكن لم أدرِ بنفسي إلَّا وأنت تُوقظني!

- لا بأس، انتظرتك وعندما وجدت الوقت قد تأخر، استسلمتُ أنا كذلك للنوم، لكن دعينا نستغل اليوم من أوله، فقد أعددتُ لكِ برنامجًا سياحيًّا زاخرًا، لن ينتهي حتى تغرب الشمس.

بعد الانتهاء من وجبة الإفطار، صعدا إلى غرفتيهما للاستعداد، ومضت ساعة تخللتها عدة اتصالات منه يستعجلها كي لا يتأخَّرا، ثم صعدا حافلة الرحلة التي ستنقلهما إلى معسكر تتجمع فيه الأفواج السياحية، للانطلاق بالدراجات الناريَّة والتجوُّل بين الأودية والجبال.. كانت «ديجة» تشعر بالسعادة وهي تقود الدراجة الخاصَّة بها، خصوصًا عندما تُسابق «أيمن» وتَسبقهُ، استمرت في مداعبة رفيقها بتلك الوسيلة حتى

تعب قائد المجموعة منها ومن مشاغباتها، فكُلَّما أراد أن ينظم المجموعة تأتي هي بعبثها الطفولي لتخرب له صنيعه، وبعد تجوالٍ دامَ ساعة ونصف الساعة في وقت الظهيرة، وتحت لهيب الشمس المحرقة، توقفت المجموعة للاستراحة تبعًا لجدول الرحلة؛ حيث تتخلل الراحة وجبة غداء خفيفة، مع متابعة برنامج ترفيهي فيه عرض لرقصة الخيول على موسيقى الناي الشجيَّة.. وعندما بدأت فقرة رقصة التنور، لم تستطِع «ديجة» مقاومة نفسها، وحاولت أن تجعل «أيمن» يرافقها في أدائها، لكنهُ أبى لما يخشاه من أن يُصاب بالدوار بسبب تلك الرقصة المتعبة، أما هي فلم تقمع رغبتها وانسلَّت بين الراقصين محاولةً تقليدهم، رغبةً منها في الوصول إلى السمو والصفاء الروحي مثلما يُشاع عن تأدية تلك الرقصة، كانت تبتسم وهي ترقص التنورة التي تُؤدَّى جماعيًّا في حركات دائريَّة، تنبع من حس إسلامي صوفي وتعكس فلسفة خاصَّة بها، تقول بأن الكون يبدأ عند نقطة وينتهي

عند نقطة بعينها، إلَّا أن راقصي التنورة يقلبون هذا المفهوم بحركاتهم الدائريَّة وكأنَّهم يرسمون هالاتٍ يرسِّخون بها اعتقادهم، يدورون كأنَّهم كواكب سابحة في الفضاء، وما إن اشتدت حدَّة الرقص وسرعته إلَّا وكادت «ديجة» تسقط أرضًا لما أصابها من بوادر صداع طفيف ودوار، لم تقاوم أكثر من ذلك، وعادت تجر قدميها إلى حيث يجلس «أيمن» الذي استقبلها بضحكة مرحة ساخرة قائلًا:

- هل اكتفيتِ، أم أنكِ مصرَّة على أن تواصلي حتى تلفظي ما في جوفكِ من طعام؟!

عند الأصيل، وقبل الغروب بساعتين، وعقب الانتهاء من الرحلة البدويَّة، كان السائق «محمد» يقود بسرعة محاولًا أن يدرك موعد رحلة الغوَّاصة الزجاجيَّة، وفعلًا استطاع أن يلحق بالغواصة قبل إقلاعها لتبدأ جولتها السياحيَّة، جلست «ديجة» بالقرب من «أيمن» تتأمَّل منظر الشعاب المرجانيَّة، وألوان الأسماك المختلفة،

فردت كفيها وألصقتها بالزجاج، سارحةً بخيالها لعلَّها تستطيع أن تلامس تلك الأسماك المذهلة التي تطفو بكل حريَّة من حولهما، شاهدا مناظر خلَّابة، ورأيا غرائب وعجائب شتَّى في أعماق البحر، وبعد انقضاء قرابة الساعة في الجولة البحريَّة شعرت بالإرهاق، لكنها قاومت، وترجَّت «أيمن» أن يرافقها لتشهد منظر الغروب أمام الشاطئ الذي يطل عليه الفندق الذي يقيمان فيه.

بعد غياب الشمس إلى عالمها الآخر، لتنجز مهام مختلفة لأُناس آخرين، وتمدهم بأمل جديد مشرق، بدأت «ديجة» تشعر بلسعة برد وهي ملقية برأسها على كتف حبيبها، للحظة عابرة استنشقت عبقهُ وعطره، وكانت تستمدُّ منه الدفء، قالت في نفسها: «نعم، إنه حبيبي الذي أسعفني، ولم يخيِّب رجائي، وجلُّ غايتهِ هو سعادتي». ظلَّت تتأمَّله بحب ومودَّة حتى حلَّ الغسق، عندها غلبها شعورها بالجوع والنعاس معًا، ووافقها

«أيمن» كذلك على أنه يحس مثلها تمامًا، واتفقا على أن يلتقيا بعد ساعة لتناوُل وجبة العشاء.

- كيف حالك يا أمي؟ أتمنى أن تكوني بخير وعافية.

- الحمد لله يا بنتي، طمئنيني عليكِ، هل أنتِ على ما يُرام؟

- الحمد لله يا أمي، وأعتذر لأني لم أهاتفكِ البارِحَة؛ فقد كان يومًا طويلًا جدًّا وشاقًّا.

- لا عليكِ يا «ديجة»، أهم شيء أن تكوني بخير، وأن تستفيدي من دورتك المهنيَّة.

- إن شاء الله يا أمي، طمئنيني يا أماه على «يارا»، هل جميع أمورها على ما يُرام؟!

- نعم يا ابنتي، دقيقة.. دعيني أدعُها لكي تحادثكِ..

بعد لحظة، كانت الطفلة على الطرف الآخر:

- ألو.. ماما.

- أهلًا حبيبتي «يارا»، لقد افتقدتكِ وأخاكِ «سلطان» كثيرًا، أخبريني، هل أنتما على ما يرام؟!

- نعم يا ماما، لكننا افتقدناكِ، ولم نكُن نعلم أن البيت من غيركِ لا طعم له، متى ستعودين لكي تنيري لنا المنزل؟

- قريبًا يا بُنيتي، أرجو أن تلتزمي بقواعد الأدب في غيابي، وألَّا تزعجي جدتكِ.

- حاضر يا ماما، لكن أرجوكِ ألَّا تتأخري، ولا تنسي أن تُحضري الهدايا التي وعدتِنا بِها!

- بالتأكيد يا حبيبتي، انتبهي لنفسك، واحرصي على رضا جدتكِ.. مع السلامة يا «يارا».

مسحت دموعها، وتمالكت نفسها، وشغلت تفكيرها في اختيار الفستان المناسب لترتديه.. وبعد عناء، استقرت على ارتداء فستان ستان «أوف شولدر» قصير أحمر اللون، له حزام يحدد خصرها النحيل، جمعت شعرها كذلك

بشريط أحمر تزينه فصوص كريستاليَّة، وانتعلت حذاءً ذا كعب مرتفع، له درجة اللون التي لثوبها الأنيق نفسها.

أما «أيمن» فلم يتحيَّر في انتقاء ملابسه، فارتدى «شورت» يصل إلى الركبة، لونه رمادي غامق، وقميصًا أبيضَ مصنوعًا من الكتان الخفيف، وحذاءً أبيضَ من علامة «ديون لندن»، وحرص على إكمال أناقته بساعة «فندي» الإيطاليَّة ذات الجلد الأسود، وقبل الموعد بخمس دقائق ضمخ ثيابه بعطر «كريد جرين إيرش».

انتهت «ديجة» من ترتيب هندامها، وما إن فتحت باب غرفتها إلَّا ووجدت «أيمن» أمامها؛ حيث بدأ بالصفير والتصفيق مذهولًا مِن جمالِها وقال متفاخرًا:

- مَن ملكة الجمال هذه؟ هل من الممكن أن تكوني رفيقتي هذه الليلة؟!

فتبسَّمت «ديجة» من دعابتهِ، وردت عليه تقريظه قائلةً بانبهار صادق:

- لبسك أنيق ورائحة عطرك خلابة، ومِن الواضح أنك ستكون نجم هذه الليلة.

نزلا معًا ليبدآ ليلة سمر وسهر لم يريدا لها أن تنتهي، زارا عدة مراكز للترفيه، وتسوَّقا، وتناولا عشاءً فاخرًا، وأرضيا كلَّ نزواتهما بإسراف وعن سعة، لم يتركا حلمًا من أحلام الطفولة، ولا رغبة من رغبات المراهقة ومطامح الشباب إلَّا وأرضياها وأشبعاها، أنفقا كثيرًا من النقود، وكثيرًا من الوقت أيضًا، حتى وجدا النهار يداهمهما باقترابه الحثيث، والليل يلوح مودِّعًا آذِنًا بالرحيل، كان من العسير عليهما أن يفترقا، لكن عقارب الساعات طعنت الفسحة المتاحة أمامهما، فلم يتبقَّ لديهما أملٌ سوى في لقاء يجمعهما في صبيحة اليوم التالي، أما الآن فعليهما العودة إلى الفندق، والخلود إلى النوم، والانغماس في الأحلام التي تجمعهما أكثر ممَّا تجمعهما لحظات اليقظة بواقعيتها الجامدة!

- كانت ليلة جميلة يا «ديجة».

- نعم حبيبي، ولقد كنتُ في قمة سعادتي، أدعو الله أن يديم فرحتنا ومحبتنا.

- اللهم آمين.. وأنا كذلك، لم أشعر بالوقت مِن شدة السعادة التي غمرتني.

ثم بعد صمت لم يدُم طويلًا، كان فيها القلبان يتحدَّثان لغةً لا يعرفها أحد سواهما، أردف قائلًا:

- والآن، يجب عليكِ النوم لكي نستيقظ غدًا مبكرًا؛ فلدينا جدول زيارات حافل، السوق المصري القديم، ومقر ألف ليلة وليلة، ثم سنحضر عرض الدلافين.

- حسبُكَ حبيبي، دعَ كل تلك الزيارات بعد أن نتناول وجبة الإفطار، ومن ثَمَّ نتشمّس على الشاطئ، ونستمتع بأجواء البحر.

ما إن أغلقت سمَّاعة الهاتف حتى وجدت نفسها تتأمَّل سقف الغرفة، وفي شرودها راحت تتذكر عشاءهما في المطعم الإيطالي تحت ضوء الشموع على موسيقى

«بيتهوفن» الرائعة، وتذكرت كيف احمرَّت وجنتاها حين قبَّل يدها، وظلَّ قابضًا على كفيها وهو يقول:

- لا أطيق البُعاد، أرجو أن تقبلي بي حبيبًا وزوجًا.

ارتعش قلبها، وهبط عليها وابلٌ مِن الحبور والسرور ودمعت عيناها فرحًا، تمنَّت لو لم تنتهِ هذه الليلة، لكنها انتهت، فالنعاس غلبها ورضخت لأمرهِ، وسافرت إلى عالمها الآخر، لتستكمل فيه عيش باقي قصتها الرومانسيَّة الدافئة.

في الصباح، كان صوته هو أول شيء تصحو على وقعه:

- بعد تحية الصباح وغزلهِ قال:" هل تسمح العشيقة لي بتناول وجة الإفطار ومن ثمِ التمشمس كما أمرت".

- بالتأكيد حبيبي، دعناّ نلتقي في المطعم، فأن الجوع قد استوطن جميع إحساسي.

وما أن أنتهيا من الإفطار، وبعد مكوثهم على شاطئ البحر لمدة ساعتين إلا وأستعدا للبرنامج السياحي الذي أعده «أيمن» مسبقاً.

- حبيبي، إنني أشعر بِتعب، وأحس أنني لستُ على ما يُرام.

- سلامتك حبيبتي، بماذا تشعرين؟!

- سخونة ودوار، أعتقد أنني تأثَّرت بضربة شمس حين استلقينا فترة طويلة على شاطئ البحر، والظاهر أنني أجهدت نفسي في زيارة السوق القديم، والمشي في أركان ألف ليلة وليلة الجميلة، لكن حقًّا لم يعُد بمقدوري مواصلة عرض الدلافين.

- لا بأس يا حبيبتي، دعيني أتصل بـ«محمد» السائق لكي يحضر السيارة أمام الباب.

كانت «ديجة» ممدَّدة وهما في السيارة، واضعةً رأسها على فخذ «أيمن»، وقد بلغت ذروة التعب والمرض لدرجة بدأت معها تتنفَّس بصعوبة، وما إن وصلوا إلى بوابة المنتجع الرئيسة إلَّا وطلب «أيمن» طبيبًا وسيارة جولف صغيرة لنقل «ديجة» إلى غرفتها، ولم تمضِ ثوانٍ من الانتظار تحت دوحة المدخل إلَّا ووصلت سيارة الجولف، لتنقل «أيمن» و«ديجة» إلى غرفة الأخيرة.

وجاء الطبيب بغير تأخير..

- أرجو أن تطمئنني يا دكتور!

- الحمد لله، هي بصحة جيدة، ولا داعي للقلق، مجرد ضربة شمس من شدة الحرارة، سوف تأخذ قرصين «بنادول» مع شرب سوائل كثيرة، وقسط وفير من الراحة، وإن شاء الله ستكون على ما يُرام.

- شكرًا لك يا دكتور.

نامت «ديجة» نومًا عميقًا ولازمها «أيمن»، حيث بقي جالسًا على الأريكة يُراقبها ويتأملها، بقي هكذا حتى لم يعُد يشعر بنفسهِ، وذهب في سبات عميق لا يقطعه حلم أو رؤية.

ومرت الساعات تكرُّ بسرعة، ولم ينتبها إلَّا في ظهيرة اليوم التالي، كان «أيمن» منكمشًا بسبب برودة الغرفة على الأريكة الصغيرة، يراوح النوم، يغلبه حينًا، وينهض ليتفقد «ديجة» الراقدة بلا حراك، ويُهزم أمامه حينًا آخر ليستسلم له، مع ما تحمله له رقدة الأريكة من مشقة، لم تجعل في جسده عضوًا إلَّا واشتكى من الألم. انفرجت أسارير «ديجة» حين فتحت عينيها ووجدت «أيمن» بجوارها، لم يتركها، وكان يظهر على ملامحه الأرق والمعاناة، وهو منكمش بين شِقيه الأيمن والأيسر على الأريكة، ظلَّت تتأمله لحظة، وتذكرت عندما قال لها إنه سوف يظل معها في المَنشَط وَالمَكرَه، وقد صدق القول، وتذكرت حينها المُرَّ من ماضيها، خصوصًا في حملِها الأول

بابنها «سلطان» حين تعبت ومرضت، وذهبت إلى المستشفى مرارًا وتكرارًا بمفردها، لا زوج يُرافقها ولا أخ يساندها، بل تخطى الأمر ذلك لدرجة أن من كانت تنتظر منه العون ومد يد المساعدة هو مَن كان سببًا في أذيتها ومعاناتها، حتى في ولادة «يارا» لم يكُن «هادي» بجوارها، بل كان مشغولًا بالغزل والاستعراض أمام فتيات الاستقبال، للأسف أضاعت عمرها مع أشباه الرجال، وتمنت في نفسها لو أن «أيمن» كان أول رجل في حياتها، وعادت تتأمل شيبتهُ، ومع خفقان قلبها أبصرتهُ رجلًا غسانيًّا، يملأ الفؤاد قبل مرأى العين.

استيقظ «أيمن» ووجد «ديجة» واقفة في شرفة الغرفة، مستندةً إلى الحاجز الحديدي، تتأمَّل البحر وقد طال شرودها، رنا إليها واقترب منها، وِمن ثَمَّ ضمها من الخلف، طابعًا على رقبتها قبلة فيها من حديث الملهوفين كثير، حادثها مترفقًا ومظهرًا حرصه عليها:

- حبيبتي، لقد طلب الطبيب أن ترتاحي ولا ترهقي نفسكِ، فلتعودي إلى السرير وترتاحي!

أجابته بحيويَّة وحماس:

- فليذهب كلام الطبيب إلى الجحيم، إن الليلة ليلة رأس السنة، ولهذا تعبنا وأتينا، ولكَ من لدني عهدٌ عظيمٌ بأن أسعدك بكل ما أملك من قوة وعطف!

وأحنت رأسها حبًّا وخجلًا!

عاد «أيمن» إلى غرفتهِ، بعد تناول وجبة الغداء برفقة «ديجة»، وقد تأخَّر الوقت عليهما من جرَّاء أحاديثَ طويلةٍ تبادلاها، ويغلب عليها رسم خطوط المستقبل الذي سيجمع بينهما، التي لم تخلُ كذلك من تغزُّل «أيمن» وإطرائه جمالها. بعد أخذهِ الحمام الفاتر، استلقى على السرير، ليتمدَّد ويريح جسمه من نومة الأريكة المزعجة، وسرعان ما أخذته سِنَةٌ من النوم، وغفت عيناه في غفلة، وبدأ صوت شخيره يتصاعد، بعد أن آذنت الشمس

بالرحيل وانتهت رحلة الغروب، وبدأ الشفق والغسق ينسجان أهداب خيوطهما، وقفت «ديجة» حائرة وسط غرفتها، ماذا تلبس هذا اليوم؟ فهي تريد أن تكون أجمل فتاة، تريد أن ترى الإعجاب والدهشة في عيني حبيبها، تريد أن تعذب فؤاده عشقًا لها وشغفًا بها، تريد أن تحيا معه ليلة عمرها!

بعد مرور ساعتين، كانا معًا مرة أخرى، «أيمن» يمشي وتتأبط ذراعهُ الحبيبة العاشقة، في أروقة المنتجع، متجهين إلى القاعة التي سُيقام بها حفل رأس السنة، همس في أُذنها وهما يتقاربان ويتلاصقان في سيرهما:

- أنتِ أجمل البشر، وأراكِ جنتي التي لم أنعمْ بها.

ابتسمت بغرور، وما كادا يصلان إلى طاولتهما المحجوزة مسبقًا، إلَّا وتراءى لهما «محمد» وصديقته الروسيَّة، وكانا قد دعياه من قبلُ إلى مشاركتهما الليلة برفقة مَن يُحِب، كان «محمد» ورفيقته مشغولين بالرقص

وشرب الكحول، أما «أيمن» فكان مهتمًّا بمراقبة الحضور، والتربُّص بمن يُبدون إعجابهم بجمال رفيقته الحسناء.. أحسَّت «ديجة» بالحنق من تصرُّفات «أيمن» الغيور، خصوصًا عندما رأت وجهه قد احمرَّ غضبًا عندما قبَّلَ «محمد» يدها، كترحاب أقل ممَّا تستحقه نجمة الحفل، مالت عليه وصدحت في أذنهِ اليمنى، كي يتمكَّن من سماعها على الرغم من ارتفاع الأصوات والصخب، طالبةً منه الرقص، لكنهُ أبى ورجاها أن يكتفيا بالجلوس ومشاهدة الآخرين، حتى تحين فقرة الفنان عمرو دياب، غضبت وابتعدت عنه، وذهبت برفقة «محمد» وصديقته، وما إن رآها الأخير حتى أمسك يدها، وبدأ يرقص معها وهو في حالة سُكر بيِّن، لم يستطِع «أيمن» مقاومة المنظر؛ فقد كانت حبيبته فتنةً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ترفل في فستان «شانيل» طويل حريري الملمس، أبيض اللون، مفتوح على طول الساق من أعلى إلى أسفل، وخصرها الفاتن الذي لا يقاوَم محدَّد بدقة، وظهرها مكشوف من

الرقبة وحتى أسفل سلسلتها الفقرية، ويَبرز امتلاء نهديها حتى يكادا ينفجران، لا يُداريه سوى سلسلة ألماس رشيقة، فأحس بالشبق ممَّا رأى، ولم يعُد يتحمَّل، فعاد إلى غرفته محاولًا التغلُّب على أنفاسه المتهدِّجة ورغبتهِ الحارة، وفورًا لاحظت «ديجة» رحيل «أيمن»، فلحقت به بخطوات متعثِّرة بسبب ارتفاع كعب الحذاء، واستوقفته وراحت ترجوه ألَّا يعكر صفو هذه الليلة، لكنه أبى ورحل، ظلَّت الشابة واجمة لحظات، لكنها عادت أدراجها لتحضر فقرة عمرو دياب الذي تعشق غناءه وتحفظ معظم أغانيه، مضت ساعة ثم أُعلِن عن بدء الحفل، وعند صعود الفنان عمرو دياب إلى خشبة المسرح، ظهر «أيمن» فجأة، وجلس بجوار «ديجة» وأمسك يدها بلطف، ثم ابتسم ابتسامةَ عاشق، فما كان منها سوى أن احتضنته، وطبعت على خدهِ قبلة شكر.

ما إن دخل إلى غرفة نومها حتى رأى الشموع الخافتة وزهور النرجس والكاميليا منتشرة في كل الأركان، وصوت موسيقى رومانسية يصدح في الزوايا، وعطرًا فواحًا مثيرًا يتضوَّع في الأرجاء، وفوق هذا وذاك فبين يديه جمال صارخ وفاتن ومثير، تأمَّل قوامها المغري وهي تسبقه بخطوة، ولم يستطِع أن يكبح شبقهُ، فضمها إليه من الخلف بقوة، وشعر بهيجان حرَّك كيانه، فجذب شعرها الغجري وقبَّلَ عُنقها بشهوة وعنف، تاركًا آثار أسنانه التي انغرست في ذلك الموضع، فترنَّحت «ديجة» حتى كادت تسقط مغشيًّا عليها من الهيام، نثر بددًا ما يرتديه وترتديه هي؛ فحرارة الرغبة أذابت كل الثلوج، والتقت الشفاه وارتعشت، وطال أنين آهات القُبلات بينهما، حتى جف ما يُنثال من لُعاب، حملها بين يديه وألقى بها بنعومة على المضجع، أُطفئت الشموع واشتعل لهيب العشق، يعلوهُ صيحات ملذات اللقاء، لم يدع بها موضعًا لم يداعبه ويقبلهُ، حتى انفجر نِداؤها، فلبَّى طوعًا وحبًّا لا يوقفهُ مدٌّ ولا جزر؛ فضوء القمر

قد أفل خجلًا، والمساءُ قد طال أمدهُ، ولم يعد يُرجى له فجر، ثارت الشواطئ وانفجر بُركانهُ من أنينها، وأنَّ المضجع وشكا كثرة الأوضاع والتقلُّبات، وعدم الاستقرار والثبات، وكُلَّما أراد أن ينقطع عن إلقاء نفسه في التيار الجارف تمنعه حرارة الرغبات وعنفها، وحين انبثقت الأبخرة والنيران من الفوهة التي تنفث النار والحمم، لم ترحم أو تستتر، بل تناثرت وتطايرت، وأصابت بأضرارها كُل مكان!

على ناحية أخرى، وفي مكان بعيدٍ جدًّا عن مهوى العشق والغرام المضطرمين:

- «سلطان».. ابني «سلطان»!

تجمدت أوصال «نواف» وهو ينادي ابنهُ بصعوبة، لكن لا حِراك ولا أنفاس في الصبي، فحملهُ أبوه بين يديه راكضًا إلى المستشفى، وقد تملَّكه وانتابه إحساس بالقلق الشديد، كان يقود كالمجنون لا يدرك ما حولهُ من صياح

البشر، أو أبواق السيارات، أو عدد الإشارات المرورية التي تجاهلها وتجاوزها، إلى أن وصل إلى باب طوارئ المستشفى، ووثب من السيارة طالبًا من العاملين بالمستشفى العون، هرع بعض العاملين لتقديم المساعدة، وسرعان ما كان الولد يتلقَّى الرعاية الطبيَّة المناسبة.

جلس «نواف» على أطراف السرير، يراقب ابنه وهو تحت جهاز الأكسجين، وبعد مرور ساعة دخل الطبيب ليفحص نبض «سلطان» ويراقب مؤشراته الحيويَّة:

- دكتور.. أرجوك، طمئنِّي، ماذا أصاب ابني؟! ولماذا كان في حالة إغماء؟!

- إن ابنك بصحة جيِّدة، والحقيقة لا أعلم ما الذي أصابه، لكن درجة حرارته كانت عالية جدًّا، وقد أصابه الجفاف، كما يبدو عليه سوء التغذية!

- لا حول ولا قوة إلَّا بالله، بماذا تنصحني يا دكتور؟

- في الوقت الراهن، يجب أن يحصل على قسط من الراحة التامَّة، وتغذية جيِّدة تقوِّي من بنيانه.

كان «نواف» ناقمًا على حياته، خصوصًا لأنه أقدم على خطأ عمره الفادح حينما أخذ قرار زواج المسيار، ولا يعلم لماذا، هل لإشباع رغباته، أم ليقهر «ديجة»، والدة ابنهِ «سلطان»، «سلطان» الذي ورث الضغينة بين والديه، ولم ينعم بحِضن أمهِ!

لكن ذلك الموقف العابر العسير جعل «نواف» يعيد التفكير في حياته كلها، ويقرر أن يسلك المستقبل بشكل مختلف تمامًا عن ماضيه المشين!

حين أفاق «أيمن» من سباته، رنا بعينيهِ نحو عشقهِ والغرام، كانت هي ناعسة لا تفتأ تُداعبُها أحلامها؛ فالابتسامة مرسومة على وجهها الملائكي، على الرغم من استقرارها في عالم آخر، عالم يسودهُ الخيال، ويُصرح فيه بما في الخاطر من خبايا النِداءات، عالم تحكمه رغبات

جامحة، على الرغم من أن فيه دستورًا للهوى الجامح، في تلك اللحظة كان ما بين جوانحها يفور بجملة أمنيَّات وتطلعات استغرقت فيها، بينما ظل شريكها في الهوى يتأملها وفي قلبهِ ألف حيرة مغمورة في آلاف من المتاهات!

وعندما تنبَّهت أخيرًا، لم تقوَ على رفع رأسها عن الوسادة، وشعرت بأن أعضاء جسدها لا تزال تحلِّق في السماء، وما هي إلَّا روح تستنشق عبير ما عاشته بالأمس، تمنَّت لو بقيت على وضعها نفسه محلقةً بين سراب الرجاء وبين الواقع، وحين تراءى لها حبيبها بجوارها أخيرًا واتضحت صورته ارتمت في أحضانه تتنفَّس عبقه، واعتصمت بالصمت، لكن وجيب قلبها فضح أمرها، وتجلَّى ما تواريه من جميل الأحاسيس، وهمست في نفسها مشفقة: «لن أقوى على الفراق، وسأكون لك ما دمتُ على الأرض أخطو»..

- حبيبي، من أعماق قلبي شكرًا، كانت أجمل إجازة أقضيها في حياتي.

- جُلُّ غايتي يا حبيبتي سعادتك، وألَّا تفارق الابتسامة شفتيك.

أكملا رحلتهما بشغف، لكن السعادة سرعان ما تنتهي، متحطمةً على أرض الواقع الصلدة القاسية، كان عليهما أن يعودا، انتهت إجازتهما، والعمل والعائلة والواجبات والقيود تنتظر، ولا بُدَّ من أن يخضعا لسلطان الحقيقة، لكن القيد الذي ربط بين قلوبهما المشغوفة كان أقوى من أن يتمزَّق، بشدة مخالب مستقبل غير محسوبة، ولا مُخطط لها.

بعد نظرة خاطفة من نافذة الطائرة تطلَّعت إليه، وقالت:

- كم وددتُ لو لم تنقضِ هذه الأيام.

- لا تخشي شيئًا، سنحياها دومًا، والقادم سيكون أمتع وأجمل.

- حبيبي، تعلم أنني قد حفظتُ جميع صورنا للذكرى، وكُلَّما اشتقتُ للسفر سأتطلع إليها، وأستعيد بها ذكريات أحلى الليالي.

- حقًّا كانت ليالِيَ رائعة، وتحديدًا ليلة رأس السنة!

وغمز بعينه بخبث، وابتسم ابتسامة ماكرة، فخفضت «ديجة» رأسها حياءً، وقالت همسًا:

- كفاكَ مزاحًا.

قبَّلت «ديجة» رأس «وهيبة» ويديها، وما إن رفعت رأسها حتى ارتمت «يارا» في أحضانها، واجتمع كل من في المنزل للترحيب بـ«ديجة» وحمدوا الله على عودتها بالسلامة، شعرت الأخيرة بدفء المنزل وكأنَّها غابت دهرًا، قدَّمت الهدايا للجميع، ومن ثَمَّ جلست في ركن مع أمها وحبيبة قلبها «يارا»، وبادرتها «وهيبة» بالسؤال عن الأجواء في شرم الشيخ، وعمَّا استفادته من دورتها المهنيَّة، حتى «يارا» لم ترحمها من الأسئلة عن الأماكن السياحيَّة والألعاب المائيَّة ومتعة الغوص في خور شواطئ شرم

الرائعة. ابتسمت وهي تجيب عن كل الأسئلة، وتداعب شعر «يارا» التي بدورها استقرت بين يدي أمها وفي أحضانها. وبعد تناوُل وجبة العشاء، صعدت إلى غرفتها لكي تستعد للنوم مبكرًا، وقبل أن تغفو عيناها اتصلت بابنها «سلطان» لكي تطمئن عليه وتعاتبه لعدم ردِّهِ على اتصالاتها، لكنها تفاجأت عندما سمعت صوت «نواف» يرد من جوال «سلطان» ويقول لها إن «سلطان» نائم، وإنهما يجب أن يلتقيا للنقاش في أمر يخص «سلطان» في القريب العاجل.

غمرت «أيمن» السعادة وهو يرى ابنته تركض تجاهه، حتى وثبت واستقرت بين أحضانه، قبَّلها وحملها بين يديه، وانحنى ليقبِّل يد أمه ورأسها، وبدأ يقدم لهما الهدايا، ولم تمضِ ثوانٍ حتى وجد زوجته مقبلةً عليه، قبَّلته على خده وهي في كامل أناقتها وزينتها، منظر لم يرهُ منذُ زمن طويل، كان يطالع رسائلها التي تعبِّر عن مشاعرها، وعن مدى اشتياقها إليه، لكنه كان يتغاضى لعدم الثقة بأنها تغيَّرت

حقًّا، والخوف من العودة إلى معاناة إحساس يدميه، وينزع من قلبه أي شعور بالحب تجاهها.

ظلَّ يداعب خُصَل شعر ابنتهِ الكستنائي، حتى غالبها النعاس، ومن ثَمَّ مكث مع أمهِ دقائق معدودة، يطمئن على صحتها ويصف لها بعض تفاصيل رحلتهِ الشاقة والشائقة، وما إن دلف إلى غرفة نومهِ إلَّا وقد أقبلت زوجته في مرح ودلال وإغراء، تقرَّبت إليه تبتغي مطارحته الغرام بعد لهفة وطول غياب، جاهد ليتمنَّع ويستعفف، لكنه انجرف خلف غريزته ونداء جوارحه التي رضخت لتلبية نِداء الواجب على ملق، على الرغم من أن علاقته بزوجته غدت خيانة لمشاعره وحبه «ديجة» التي أمست عشقه ونبض قلبه، لكن تلك الغلطة ما زالت خطأً يقره الشرع دون حدود أو شهود.

انهمكت «ديجة» في إنجاز مهامها البنكيَّة المتراكمة، ولم تنتبه إلى رنين جوالها، كانت تستمع إلى همس زميلاتها، لكنها لم تدرك ما يُقال بسبب انشغالها، وحين حان الوقت

المستقطع لتناول وجبة الغداء، أصغت لما تقوله الزميلات وهن في حالة سعادة وفرح، ووقع من يدها فنجان الشاي فجأة، عندما رنَّ في أُذنيها خبر أن زميلهن «أيمن»، من قسم الرجال، سوف يُرزق بمولود جديد عمَّا قريب. أصابها الجنون والهلع، لكنها تداركت الموقف وسيطرت على مشاعرها، ثم نهضت على عجل، ذهبت لتوصد باب مكتبها جيدًا، وراحت تُجري اتصالًا بلهفة بالغة، وما إن رد «أيمن» على اتصالها متهللًا بسعادة لسماعه صوتها، إلَّا وقاطعته بحدة قاسية وسألته:

- أجبني بصراحة تامَّة، هل ستُرزق بمولود آخر عمَّا قريب؟

وما إن سمعت إجابتهُ الواهية، التي تشوبها مبررات وقحة، حتى انبثق بركان الغضب داخلها، وغاصت في غياهب الشعور بالخيانة والغدر، ومِمَّن؟! من ذلك الذي اعتبرتهُ حبيبًا ورفيقًا وسندًا!

قضت أسبوعًا لا تفارق محبسها، ولا تسمح لأحد بزيارتها، سوى «يارا» التي لم يكُن ما بلغته من عمرٍ يسمح لها بأن تدرك حالة أمِّها، وكل ما استطاعت القيام به أن ترتمي في حِضن أمها لتمسح لها دموعها، بالكاد انتهت «ديجة» من دفن قلبها الذي قُبر وهو ينبض، حكم عليه قاضي خيبات الرجاء بالقصاص، من غير أي جناية اقترفتها، سوى أنها جنحت خلف مشاعرها تحت جنح الليل، بغير أن تستعيذ من طوارقه، أو تخشى جوارح النهار، فأصابها في مقتل. جنت على نفسها حين استسلمت لبراثن الهوى وخِداعه، حين اعتبرته ملاكًا منقذًا لحياتها، ليتهُ لم يقع في طريقها، ليته لم يسكن فؤادها، قد برع في دور البطولة حين قبَّل الأيادي، وركع طالبًا الزواج بها، ما الذي أصابها لتُخدع مرة أخرى؟!

أكان اشتياقًا لمن يأتي ويوقظ بركانها الخامد، أم مَن يُشعرها بأنها ما زالت في قمة أنوثتها؟ أيُعقل أنها رضخت بكل يسر كأنَّها بغيٌّ لا قدرة لها على حجب آهاتها؟! لماذا؟!

هذا المكر والكذب والخداع، لماذا؟! ادَّعى أنهُ انفصال جسدي أبدي، وأنها مجرد امرأة لا قيمة لها عنده سوى أنها أم ابنته، هي التي أحبها وهي التي قضت بقسوتها وغبائها على حُبه إياها، مُحال أن تكون كل تلك الحُجج مجرد أعذار واهية، كيف لم أشعر ولم أنتبه؟! كيف لي بذلك ونبضات قلبهِ ما زالت ترنُّ في أُذني؟! نعم، كان جسدي يصرخ تحته حبًّا وشغفًا، لكنه كان يبادلني العشق والغرام، ودموع عينيه تتساقط عليَّ بِلا قَدّر تؤكِّد صدق مشاعره ونيَّاته!

بعد اتصالات كثيرة، ورسائل لا حصر لها ولا عدد، لم يجد «أيمن» أي سبيل للوصول إليها، فقام بزيارة مفاجئة لمنزلها طالبًا يدها مِن «وهيبة»، «وهيبة» التي كانت تشعر بتغيير في حياة «ديجة» منذُ التحاقها بالعمل في البنك الأخير، نومها أصبح قليلًا، وهمسات مسموعة عبر الهاتف جعلت ليلها نهارًا، وتحول نهارها إلى ليل، لم تُطِق البقاء على مائدة الطعام مقدِّمة أوهى الأعذار، في شرود تام، وابتسامة لا سبب لها سوى ورود ذكرى إلى خاطرها،

لم تلقَ الإلحاح منها قبل ذلك للسفر إلى شرم الشيخ، ورأت وجهها مُشعًّا بنور الغرام عند عودتها، والآن بدأت تفهم وتستوعب سبب هذا الحبس الانفرادي الذي يسودهُ الظلام والكآبة!

انصرف «أيمن» وهو موزَّع بين خيبة مبتغاه، وبين بصيص نورٍ من الأمل، حين طلبت «وهيبة» مُهلة من الزمن لعرض الأمر وإقناع صاحبة الشأن. لم تكُن أستاذة «ليلى» على دراية بمصاب «ديجة»، لكنها كانت تعلم جيدًا أن غيابها عن العمل دون عذر مسبق هو أمرٌ في غاية الأهمية، احترمت غيابها ووجدت لها الأعذار، لمعرفتها السابقة بجديتها وإخلاصها للعمل، وما إن أتمت «ديجة» تنفيذ حكم قلبها القاضي الصارم، وقبل أن تفتح باب سجنها المُعتم، وقبل أن تزيح غطاء قبرها المُظلم، كانت قد قررت أنه لا حب بعد اليوم ولا مشاعر، ستحيا ما تبقَّى لها من العمر لولديها «سلطان» و«يارا»:

- هما من أنجبتهما، وهما من سأرعاهما، وهما من سيحبانني بِلا شرطٍ أو مقابل.

بعد حمَّامٍ طويلٍ غمرت نفسها فيه تحت ماءٍ ساخن، ولا دموع تساقطت أو خواطر شتَّتَتِ الذهن، بل جمود وخمود في الحواس والمشاعر، خرجت وهي ترتدي روب الحمام، وما إن بدأت تجفِّف شعرها إلَّا وقد سمعت طرقًا على باب حجرتها، فتحت الباب لتجد أمها «وهيبة» فتراجعت لتسمح لها بالدخول، دخلت الأم وبدأت تكلمها بلطف، تطرقت إلى الموضوع بشيء من التمهيد قائلة:

- لا أريد أن أعرف ماذا أصابكِ، ولكن كوني على ثقة بأنني دومًا بجواركِ، كان هناك بالأمس زائر حضر من أجلك، وطلب مني يدكِ على سُنَّة الله ورسوله.

دون أي تفكير أو مقدمات، هتفت مُحنَقة:

- لا وألف لا.

وعندما حاولت «وهيبة» أن تستوضح الأمر، كان جواب «ديجة» عبارة واحدة يملؤها الجفاء:

- أرجوكِ يا أماه أن تحترمي رغبتي، دون أن أقدِّم أي أعذار أو أسباب.

كانت تعلم أنها بهذا القرار تقضي على آخر فرصة لقلبها بأن ينبض بالحب يومًا ما لذلك الرجل الذي جعل قلبها ينتفض معلنًا عن رغبته في الحب من جديد، وحكمت بالإعدام على علاقة تمنَّت أن ترى النور، وتحيا في نعيمها دهرًا، وأنها بذلك تدمِّر كل خطط المستقبل التي رسمتها في خيالها، أو وهي في أحضان «أيمن»، لن تبني سعادتها على حساب سعادة شخص آخر، هي لا تقوى على خراب البيوت، ولا قدرة لها على العيش بوجود من يشاطرها أحلامها ونزواتها، سواءٌ أكان ما قالهُ صحيحًا أو أبدع في الكذب والتمثيل، فالأمر عندها سِيَّان، لن تنتزع رجلًا من أسرته وعائلته.

طال الحديث والشد والجذب بين عقلها وقلبها، فقالت مُنهيةً هذا الحوار وهي في حيرة تامة:

- لو أنهُ صارحني منذُ البداية وجعلني على دراية بالحقيقة، ووضع بين يدي القرار، كان من الممكن حينها أن أستجيب لإملاءات العقل، وأرضخ لخفقات القلب، الذي ارتجف منذُ أول لقاء وأول لمسة يد.. أمَّا الآن، وبعد أن تأكدت من كذبه وتلفيقه وتزويره للحقائق، وإخفائه ما لا يجب أن يُخفِي عليَّ، فإن الأمر قد أصبح مستحيلًا.. مستحيلًا تمامًا!

❋❋❋❋❋

(٧)

شربت فنجان قهوتها كالعادة في شرفة المنزل، وهي تستمع إلى أحاديث ابنتها «يارا» عن آخر صيحة من صيحات الموضة، وعن طموحاتها بأن تصبح مصممة أو عارضة أزياء، ثم أتى «سلطان» واحتضن أمه وقبَّل رأسها ويدها، وقال مقاطعًا حديث «يارا» السخيف والممل:

- مللتُ يا أماه من الدراسة، أرغب بشدة في البحث عن عمل.

صمتت «ديجة» لحظة من الزمن وهي تتطلع إلى «سلطان» وترى فيه مثالًا للرجولة، نعم هو لم يتم الرابعة عشرة من عمره، لكنه نضج بوضوح، وخطَّ شاربه على

عكس مَن هم في عمره نفسه، كانت تأسف على حاله لوجوده معظم الوقت في سجن أبيه الصارم، لم تنسَ يوم التقت «نواف» ليتشاورا في مجريات حياة «سلطان» ومستقبله، وكيف حمَّلها مسؤوليَّة ما آل إليه من تردٍّ صحي، وسوء تغذية، ووحدة تلازمه أينما حلَّ، أبت ورفضت ما اتُّهمت به من إهمال لـ«سلطان» وصحته وتقصير في حقه عليها، مدافعةً بأن عناد «نواف» وإصراره على إبعاد ابنها عنها رغبةً في الانتقام منها، جعلاها لا تقدر على متابعة الصبي ورعايته كما يجب. ولكن رغبة ابنها الطارئة الآن أشعرتها بمزيدٍ من المسؤوليَّة تجاهه، فلم تستجِب لمطلبه، ونهرته على ما قال، وطلبت منه أن يحرص على دروسه، ويتسلَّح بالعلم حتى يحصل على الشهادة الجامعيَّة ومن بعدها يفعل ما يحلو له.

ترفَّعت عن الإقرار بما تحسُّ به، وأخفت آلمها في طيات جوانحها كعادتها، التي كادت تؤدي بها مرارًا وتكرارًا إلى التهلكة.. نعم، حبها لـ«أيمن» كان صادقًا وعميقًا، حتى

تمنَّت نفسها زوجةً له تعتلي عرش قلبه حين امتلك وجدانها وهيمن على روحها، وحين طلب منها أن تكون شريكة حياته، امتلكها حتى من قبل أن تكون زوجته على الورق، تذكرت نفسها، والآلام تعتصر قلبها، وهي تسلِّم له كل جوارحها وجسدها، بمطلق حريتها وبكامل إرادتها؛ فالعشقُ الممنوع والاستسلام لسلطان الهوى، الذي وعد بهِ الشيطان، يجعلنا ضُعفاء أمام مراعاة النصوص الشرعيَّة أحياناً، والتي تحتاج إلى إصرار وعزيمة للتقيُّد بِها، لكن لا قدرة لإنسان على العيش وحيدًا بين الجدران عند فقدان الإيمان، بِلا ونيس أو خليل، ليته كان من أشباه الرجال، لمَا ندمت حينها إلَّا على سوء الاختيار، لكنه كان رجلًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، استشعرت بين أحضانه الأمان، وتذوَّقت طعم السعادة والأيدي في حالة تشابك وتعانُق. كانت تراه أسدًا يحميها من غدر البشر، وتشبهُه بـ«سكارفيس»، ملك محمية ماساي مارا الأسطوري، وعلى الرغم من قوة الحيوان الأعجم فإنهُ كان حنونًا وعطوفًا مع

صغاره، لكن «أيمن» الإنسان الكامل، للأسف لم يمُت مثل الضاري واقفًا بشموخه، معتزًّا بتاريخهِ، تاركًا إرثًا يمجِّدهُ المحبون، بل على العكس دُفن حيًّا بقلبها بسبب خيانته، وكذبه الذي دمَّر كل ما يعمر نفسها قِبَله مِن إعجاب وإحساس. وأمست تردِّد سائلةً نفسها: «ما الفائدة من تذكُّر هذا كله؟ وما الجدوى مِن هذا النقاش الطويل؟! يجب أن أنساه، وأجعله بين طيات الماضي الذي لطالما اندثر مع مرور الأيام».

بدأت لا تشعر بالراحة في العمل، لا سيَّما عندما تغيَّرت رئيستها المباشرة التي كانت تحنو عليها وتقدِّر مجهودها وتُثني عليها، فأتت التي تُدعى «إيمان»، رئيسة جديدة، لتنغِّص عليها ما تبقَّى من حياتها، وتُسند إليها مهام ليست من اختصاصها، حتى جاء وقت تقديم أسماء المرشحين للترقية، لتخرجها «إيمان» من القرعة تمامًا، على الرغم من استحقاقها هذه الترقية بشهادة جميع الزملاء، وفي تلك الأثناء و«ديجة» مضطربة بين هجوم غاشم مخادع مِن

قِبل رئيستها الجديدة، ومحاولتها إقامة خط دفاع قوي عن حقها بالعمل والمثابرة والجد، أصابتها وعكة صحيَّة طارئة، أدَّت إلى توافر الفرصة لـ«إيمان» لإنهاء تلك المعركة بتحقيق نصر رخيص، فاستغلت الموقف أسوأ استغلال، واضطرت «ديجة» لاتخاذ قرار مؤلم لها، فتركت العمل بمحض إرادتها؛ لأنها لم تعُد تملك القدرة على الصمود أمام ما تلقَّته من صدمات متتالية، حتى عندما أرادت أن تأخذ استراحة من الحرب الضروس ضد الغدر والقسوة، في أحضان الحبيب العاشق، قتلها من وثقت به، وسلبها جُلَّ ما تبقَّى لها من تفاؤل وإقبال على الحياة.

مرت تسعة أشهر وفي طياتها لحظات حرب وساعات سلام، حرب بين عقلها وتفكيره الدائم فيما سبَّبته لها الأيام من أضرار ومِحَن، وسلام تحيا بهِ بين قلبها وابنيها.

وفي محاولةٍ لغسل همومها، اختارت التقرُّب إلى الله، بذرة صلحٍ بينها وبين خالقها الذي تمرَّدت على أوامره كثيرًا، فسافرت إلى مكة أيامًا، وأدَّت العمرة برفقة ابنتها «يارا»

وأمها «وهيبة» التي محت ما في قلبها من هموم وأحزان، توسَّلت طالبةً من بارئها أن يمحو ما اقترفته من ذنوب، قد أبكاها ذكرها إياها وندمها عليها ليالي طوال، وأن يرزقها سِعة الرزق وراحة البال، وحين عودتها بدأت تبحث عن عمل جديد.

في أول يوم من شهر رمضان، ببركاته وخيره وكثرة مننه، وفي أثناء بحثها عن فندق مناسب بجوار الحرم النبوي، لتقيم أمها بِه، كما اعتادت خلال هذا الشهر، وتتعبَّد لخالقها وتصلي جميع الفروض، خصوصًا صلاة القيام، من تراويح وتهجُّد، في الحرم المطهَّر، تلقَّت «ديجة» اتصالًا من صديقتها «أمل» التي أخبرتها، في خضم الحديث، عن شخص اسمه «جمال».

«جمال»، شاب لبناني مسلم سُني، في منتصف الثلاثينات، أبيض البشرة، أجعد الشعر، وله أنف طويل، وسيم وقوامه رياضي، يهوى السباحة والسفر ومشاهدة الأفلام، حاصل على شهادة جامعيَّة في تخصُّص إدارة

واقتصاد، وُلِدَ وترعرع في بيروت، بين جبالها وشواطئها الخلابة، مولع بالسهر وشرب الخمر، ويعشق اللهو مع النساء، من أسرة مكوَّنة من أمٍّ ذات جمال باهر، وأخ ظريف يحب رياضة التزلُّج، وأخت صغرى ورثت جمال أمها وحلاوة روحها ورقيَّ حضورِها، تُعد الأسرة من الطبقة فاحشة الثراء، وتزاول مهنة تجارة الأسلحة منذُ القِدم وتوارثها الأحفاد. كبر «جمال» على ممارسة تلك التجارة بمشاركة عمه، وتخصص في بيع المسدسات والكلاشينكوف وقذائف الـ«ب ٧»، وجمع ثروة لا بأس بها تجعله يقارع أكثر التجار ثراءً وغنًى، كان لديه شغف وحب كذلك لتجارة السيارات، وبالأخص الرياضيَّة منها كـ«فيراري» و«لامبورجيني» و«بُغاتي»، يتباهى دومًا بذاتهِ ومالهِ لدرجة الغطرسة والغرور، ما أوجد له عددًا من العيون الكارهة والحاقدة التي تراقبه وتتربَّص بهِ، وبدأت عداواته المتصلة تضر بعلاقات عمه القديمة التي ورثها أبًا عن جد في سوق تجارة الأسلحة، ما اضطر عمه إلى أن

يُبعده عن مهام عمله لكي يحميه، حينها شرع «جمال» في فتح سلسلة مقاهٍ ومطاعم في داخل لبنان وخارجها، لكنه للأسف، وبسبب افتعاله المشكلات مع شريك لعمه ينتمي إلى طائفة أخرى، واجه خسائر وتهديدات قد تودي بحياته. في تلك الأثناء، وبعد أن تملَّكه إحساس القهر والإحباط بسبب خسارته أمواله، وتحطُّم مشاريعه أمام عينيه، أتاه صديقه بعقد عمل في أحد فنادق السعوديَّة، كان حينها في حالة سُكْر تام، ومن شدة إحباطه، وبِلا مراجعة أو إدراك لما هو مكتوب في العقد، وقَّعَ وقبِلَ الوظيفة فقط ليهرب من واقعه المرير.

بعد الانتهاء من صلاة التراويح في المسجد النبوي، توجَّهت «ديجة» و«وهيبة» إلى الفندق الذي رشحته لها «أمل»، والذي لم يكُن يبعد عن الحرم سوى أمتار قليلة، وما إن وصلت إلى بهو الفندق حتى جعلت «وهيبة»، التي أنهكتها الشيخوخة وتقدم العمر، ترتاح على أريكة في

الاستقبال، وذهبت هي إلى الموظف، وطلبت منه مقابلة الأستاذ «جمال».

- أهلًا أستاذ «جمال»، أنا «ديجة» من طرف السيدة «أمل» التي أخبرتني عنك وعن إمكانيَّة تقديمك المساعدة لي في حجز غرفة مطلَّة على الحرم، وبتخفيض مناسب، خصوصًا في هذه الأيام الفضيلة.

تأمَّلها للحظات ثم ابتسم قائلًا:

- كما تعلمين مسبقًا أن هذه الأيام هي موسم، ولدينا حجز كامل لكل الغرف، لكني سأبذل قُصارى جهدي لإيجاد غرفة مناسبة بأفضل سعر ممكن.

- سأكون شاكرة لك، وسأنتظرك هنا مع أمي.

ثم التفتت نحو أمها مشيرةً إليها باحترام.

حينها انتبه «جمال» إلى وجود سيدة هيئتها تدل على الوقار، تجلس على الأريكة المقابلة، فانحنى لها قليلًا إلى

الأمام، قابضًا على أسفل «المعنقة» بيده اليمنى، وتمتم ببضع كلمات مُرحِّبًا بها، ومُتمنيًا لها طول العمر والصحة والهناء، ثم أشار بيده إلى أحد موظفي الاستقبال، وطلب منه أن يُحسن ضيافة المرأتين، واستأذن منهما ليرى إمكانيَّة توافر الحجز واعدًا بالعودة سريعًا. بعد دقائق معدودة رجع «جمال»، طالبًا أن ترافقه إحداهما لترى الغرفة إن كانت مناسبة أم لا..

- أرجو أن تنال إعجابكما أستاذة «ديجة».

- شكرًا أستاذ «جمال»، إنها فعلًا رائعة، مطلة على الحرم ومتسعة ومريحة.

- كُنتُ أود لو كانت الوالدة الكريمة معنا لتُبدي رأيها.

- ثق تمامًا بأنها ستروقُ لها؛ فهي أمي وأنا أعرف ذوقها جيدًا.

وفي أثناء نزولهما بالمصعد، طلب «جمال» من «ديجة» بطاقة الهُويَّة الوطنيَّة لإتمام عملية الحجز، ورقم هاتفها المحمول. وبقيت بجوار أمها في بهو الفندق، وكانت «وهيبة» قد اعتذرت بلطف عن عدم الصعود لتفقد الغرفة مكتفيةً برأي «ديجة»، بحجة قراءة وِردها من القرآن الكريم حتى ينتهيا من المعاينة، لكن «جمال» تأخر؛ فقد كانت لهُ مآرب أخرى من الأوراق الثبوتيَّة غير إتمام عملية الحجز، في الحقيقة أعجبته «ديجة» بابتسامتها الفاتنة ولباقة حديثها اللافتة، وقوامها المثير، على الرغم مِمَّا ترتديه من كنان أسود يخبئ ما تحته من جمال، فاستغل فرصة المهلة التي طلبها لإتمام الإجراءات، وتحدث هاتفيًّا مع واحد من معارفه ليتأكَّد من ملة المرأة، وهل هي من السُّنَّة مثله، أم أنها من نفس طائفة الأشخاص الذين ألحقوا الأذى بهِ وبتجارتهِ!

تمتَّعت «ديجة» بإقامة حسنة مع أمها في الفندق، وهفت روحها، واستقرَّت في رحاب المشاعر الدينيَّة التي غمرتها بين جنبات الحرم، لكن اهتمام «جمال» الواضح بها لم يفتنها، كما حدث معها سابقًا؛ إذ قررت أن تحيط مشاعرها وأنوثتها بسياجٍ من التعقُّل، والاعتصام بالصبر يحميها من تكرار الأذى الذي تعرَّضت له مرارًا من قبلُ، وبعد نهاية العُمرة عادت إلى بيتها وحياتها، متعمدةً ألا تتذكَّر شيئًا ممَّا صادفها في رحلتها، غير ثقتها الموهوبة والمتجددة بنفسها.

بعد عدَّة أيام، أجرى «جمال» اتصالًا مفاجئًا برقم جوَّال السيدة «وهيبة»، معرفًا بنفسه، ومن ثَمَّ تقدَّم طالبًا يد «ديجة» منها على سُنَّة الله ورسوله، شارحًا أسباب طلبه غير المتوقَّع بما رآه في ابنتها من دماثة خلق وحياء، وذلك ما شجعه على الإقدام على هذه الخطوة، متمنيا من الله القبول. نقلت «وهيبة» إلى «ديجة» رغبة جمال،

فتلقت الخبر باستغراب واندهاش، ولم تعلن إجابتها على الفور، واسترجعت ذكريات يوم اللقاء في نفسها متفكِّرة:

- نعم، يبدو أنه لطيف ووسيم ورياضي، كما أن اختياره ألوان ملابسه يدل على حس الأناقة ورقي الذوق لديه...

لكنها فجأة قمعت جميع خواطرها وأفكارها، وقالت لنفسها موبِّخة:

– ما هذا الذي يحصل معي؟ كيف لي أن أفكِّر في رجل لمجرد أنه طلب يدي للزواج؟ أنسيت وعدي وعهدي، وجميع النُذر التي عاهدت نفسي عليها بأن أحيا لنفسي وولديَّ، وأنه لا يوجد في هذه الحياة من يستحق أن نضيع عمرنا معه أو لأجله؟ كيف أرتكب الخطأ نفسه، وأضع نفسي في قفصٍ لا يمكنني فيه التمتُّع بحريتي، أو التنفُّس دون رقابة؟! لقد سلبني «نواف» مراهقتي، وأمات «هادي» ثقتي بنفسي وبمَن هم حولي، وأتى من بعدهما «أيمن» ليخذلني ويقتل مشاعري، لم يعُد لديَّ ما أقدمهُ

من عطاء، أو صبر أو أحاسيس، فلِمَ أرتبط ومن ثَمَّ أَخيب ويخيب رجائي ورجاء غيري معي من جديد؟

كانت تفكر همسًا في دخيلة نفسها، لكنها في الحقيقة كانت تصرخ صراخًا مكتومًا، لا يسمعه سواها، وفي حمأة مناهدتها نفسها ومدافعتها إياها، كانت قد اتخذت، دون أن تدرك ذلك، قرارًا سيغيِّر مجرى حياتها كليًّا وإلى الأبد!

أعدت «ديجة» و«يارا» حقيبة الإفطار اليوميَّة، كما تفعلان منذ مطلع شهر رمضان، التي تحتوي على السفرة النايلون، والقهوة العربي، والعجوة، والدقة، والشريك، وعشر علب من الزبادي، ولبن، وماء.. وانطلقتا بعد صلاة العصر، برِفقة سائقهما الخاص العم «جهاد»، إلى الفندق ليصطحبوا «وهيبة» إلى الحرم، ومثل العادة تبادلن التحية مع باقي النسوة الموجودات اللاتي ألفوهن منذُ بداية رمضان، ومن ثَمَّ يبدأن في تلاوة القرآن بشكل فردي، وقبل أذان المغرب يمددن السفرة ليتشاركن الإفطار والأجر، ويجلسن متجاورات، وكل منهن في قلبها أمنيَّات

ترجو أن تتحقَّق، وذنوب تتضرَّع أن تشملها المغفرة والعفو والصفح الإلهي، منظر تقشعرُّ له الأبدان، حين تراهنَّ كالبنيان المرصوص على قلب رجل واحد، جمعهن في هذا المكان الطاهرِ الشهرُ الفضيل، وإحياء عبادة الرحمن وحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وما إن يسمعن صوت الأذان، معلنًا عن دخول وقت إرواء الغُلة، إلَّا وتجدهن يتشاركن الابتسامة، ويشربن الماء واللبن، ثم يتقاسمن الشريك فيما بينهن ليغمسنه في الدقة والزبادي.

كانت «ديجة» تشعر بالسعادة وهي تتجول مع ابنتها «يارا» في أرجاء السوق، بعد انقضاء صلاة التراويح، لم تعد «يارا» الطفلة المدللة، بل بدأت تظهر عليها معالم الأنوثة، وهي بنت الثالثة عشرة مِن عمرها، فزاد طولها واستدار خصرها، وبرز نهداها بوضوح، ما أدَّى إلى تغزُّل الشباب فيها، وهي تتسكَّع بجوار أمها، تبتغي اقتناء كل ما هو جديد في عالم الموضة لكي تتحلَّى به في أيام عيد الفِطر، تشاكس أمها وتضيِّق عليها الوقت، بسبب كثرة الأماكن

التي تريد التردُّد عليها، لكن «ديجة» كان يشغل بالها كذلك حبها البعيد عنها، «سلطان» ابنها، الذي كان أول مَن أنجبته، والذي للأسف يقضي معظم وقته بعيدًا عنها، بسبب كبرياء «نواف» وعِناده المقيت، وكُلَّما أتاها ليبقى عندها أيامًا قليلة، يقضي أوقاته بين افتعال المشكلات مع أخته، ومحاولة فرض رجولته البازغة عليها، تبتسم «ديجة» عند بلوغها هذا الحد من التفكير، فعلى الرغم من تصرفاته فإنها تشعر بالسعادة في قرارة نفسها؛ لأن ابنها أصبح رجلًا بالإمكان الاعتماد عليه، وهذا جُلُّ ما تبتغيه في الحياة.

«وهيبة» ظلَّت متخبطة في مشاعرها، أيامًا تحس بالود والامتنان والاستقرار لوجود «ديجة» وابنيها من حولها، وأيامًا تتكدَّر حياتها بالريبة والتخوُّف من أن تصبح يومًا ما وحيدة، لا تجد من يؤنس وحشتها أو لا يهتم بها.. ازداد ثقل الأيام عليها، وبخاصَّةٍ بعدما أنهت آخر يوم لها في العمل الذي طالما تمنَّت ألا تُرغَم على الخروج منه أبدًا،

وأن تظل إلى آخر نَفَسٍ في صدرها على الكرسي والمنصب اللذين تعتز بهما، أُضيف اسمها إلى قائمة المتقاعدين، وأصبحت رسميًّا امرأة على المعاش، ولن تنسى ذلك اليوم الذي تُوِّجت فيه كنجمة حفل تقاعُد من منصبها الذي استحقته عن جدارة، وأخذ من عمرها أربعين عامًا لتصل إليه، كانت ترى الفرح في أعين الجميع، وكانت ترى كذلك اختلاف الابتسامة في داخل قلوبهم، بعضهم، أو بالأدق قلة منهم، حزن فعلًا لفراقها وانتهاء فترة صلاحيتها للعمل، بينما بعضهم الآخر، وللأسف هم الأكثرية، فضحتهم عيونهم، التي كانت مليئة بالشماتة والسعادة، وكأنَّهم يودعون الجلَّاد الذي كان يُبرح ظهورهم ضربًا بالسياط، بعد التقاعد ملأت وقت فراغها بترؤُّس بعض الجمعيَّات الخيريَّة، وحضور اللقاءات والندوات، لكن كل هذا لم يشبع غرورها، أو يحقق تطلعاتها؛ فهي تعلم جيدًا أنها مجرد ديكور في هذه الجمعيَّات التي أصبحت مجرد عنوان بلا أهداف أو أفعال على أرض الواقع، فاستسلمت أخيرًا

لمشيئة القدر، ولا سيَّما أن الأمراض شرعت تغزو بدنها الواهن من كل حدب، وفي كل يوم جديد تصيبها علة جديدة.

- «ديجة»، لقد حدَّثني «جمال» أكثر من مرة يسألني عن رأيك في عرضه الزواج.

هتفت «وهيبة» مخاطبةً ابنتها، فردت الأخيرة بحزم:

- أمي، لا أريد أن أكرر تجربتي الفاشلة، فأنا أيقنت بأنه لا حظ لي في الارتباط.

- ابنتي، أعيدي التفكير في الأمر، إن الوحدة شيءٌ قاتل، ويجب أن تكبري وبجوارِكِ زوج يكون سندًا لكِ أمام صعوبات الحياة.

- لستُ وحيدةً، ويكفيني وجودك ووجود «سلطان» و«يارا» في حياتي.

- نعم، أوفقكِ الرأي، لكني لن أعيش لكِ إلى آخر العمر، وابناكِ سيأتي يومٌ ويستقل كلٌّ منهما بحياته.

- لا أعلم يا أماه، لقد صليتُ صلاة الاستخارة أكثر من مرة وأشعر بالتردد، ولا تنسي كذلك أنه ليس ابن بلدي، وأنه من جنسيَّة أخرى، ولا أعلم إن كان من الممكن أن يكون بيننا لغة حوار وتفاهم؛ فعاداتنا وتقاليدنا مختلفة كليًّا عن عاداتهم وتقاليدهم.

- لا تخشي شيئًا، لقد جعلت ابن خالتكِ يسأل عنهُ وعن أخلاقه، وقد قابله ليتعرَّف إليه عن قرب، وأخبرني بأنه ذو خُلق ومحبوب في عملهِ، ولديه حِس ووعي ثقافي عالٍ، كما أنه من أسرة معروفة وغنية بلبنان، أما بخصوص كونه ليس سعوديًّا فهذا لن يفرق معكِ، إلَّا إذا كانت لكِ الرغبة في الإنجاب مجددًا، ولا تعلمي ما يخبئه المستقبل من قرارات بشأن هذا الموضوع.. في النهاية، القرار يعود إليكِ، لكن عن نفسي فأنا مرتاحة له، ومعجبة بما سمعت من إطراء ومديح فيه.

بدأت «ديجة» تدخل في صراع بين أفكارها المشتتة، وبين خوفها من خذلان مشاعرها مجددًا، واستقر رأيها على أن تنسى الماضي وتنظر إلى الحاضر وتتطلع إلى المستقبل، وراحت تسمع صوت احتياجها العاطفي يهمس لها بصوتٍ لا يُسمع:

- نعم، مع أمي الحق، إلى متى سأظل هكذا عزباء؟ وإلى متى سأدفن أنوثتي؟ لن أكذب على نفسي، وليس في الاعتراف بالحقيقة ما يخدش الحياء، أنا كلبؤة تحتاج إلى أحضان أسد، أنا كذئبة لا تقوى العيش دون الذئب الألفا المخلص الوفي، نعم أنا كظبية تبتغي إخماد نيران شبقها مع الظبي التوبي. قد هُتك عرضي بغبائي، ووصمت نفسي بالعار، وأخشى أن يعلم بالأمر ابناي، لِمَ كل ذلك؟! فقط لأنني لستُ على ذمة رجل، وقد سُلبَ قلبي ونُهب لمجرد لمسة حانية من رجل غريب، ولو كنتُ مشغولة بما كُتبَ لي من نصيب لمَا كنتُ ضحيةً لرغبتي، ورغبة زميل عمل هو مجرد عابر طريق، لا وألف لا، لن أكرر أخطائي، نعم

ابناي معي الآن لكنهما سيرحلان غدًا، وحين يرحلان ستتقلَّص فرص اختياري مع تقدُّم العمر، وسيأتي زمن لن يقبل أحد بامرأة طُلِّقت مرتين، وفي كنفها ابنان بالغان، فلأعيش ملذات آهاتي وإشباع نزواتي، لكن بالحلال فقط! «جمال» لم يخادع أو يراوغ، طلبني مباشرةً من والدتي، وسأمنح نفسي وأمنحهُ فرصة التعارف!

كان قرارها حاسمًا ونهائيًّا هذه المرة، ولأن التجارِب الماضية علَّمتها أن التسويف وانتظار فرص قد لا تأتي أبدًا، قد يضيِّعان عليها سعادة آنية متاحة أمامها؛ فإنها لم ترهق سبعها المتشوِّق بعسير الاختبارات والحيل، فقط اكتفت بما لمسته فيه من صدق في مشاعره، ورغبة حقيقيَّة في الاقتران بها، وأعلنت موافقتها ورضاها عن الزيجة المقترحة!

لم تمضِ ثلاثة أشهر حتى صدر قرار إذن الموافقة على الزواج مِن وزارة الداخليَّة، ومن ثَمَّ تمّ عُقد القِران (الشبكة)، لم تكُن «ديجة» تشعر تجاه خطيبها وعريسها

المنتظر بأي مشاعر حب، لكنها دخلت حياتها الجديدة وهي سعيدة ومستبشرة بكرمهِ وخفة ظله، ولباقة حضورهِ، وقصصه التي لا تنتهي على الرغم من انشغاله الدائم في العمل، لم يُضِرها انشغاله بشيء طيلة فترة الخطوبة، بل على العكس، جاء على هيئة فائدة عظمى لها، فأصبحت تقضي معظم وقتها مع ابنيها، اللذين انشغلت عنهما مسبقًا بسبب عملها ومغامراتها بكل ما حملته من طيش وعشق ومجون، أما الآن فلم تعُد بحاجة إلى الشغل، أو بالأحرى «جمال» خطيبها وزوجها الذي لن يخلو بِها إلى بعد إتمام مراسم الزفاف لا يريدها أن تعمل؛ لأن كل ما يريده هو أن يقضي معها وقتًا أطول، وأجمل، وأكثر دفئًا!

*****

(٨)

اضطرَ «جمال» للسفر إلى لبنان، لأمر عائلي مهم، وظل يتواصل مع «ديجة» يوميًّا، طلب منها أن تأتي إلى بيروت لتقضي بِها بعض الوقت، وتستمتع بأجوائها وجمال الطبيعة، ترددت في بادئ الأمر، لكن ابنة خالتها وبموافقة زوجها ظلَّت تلحُّ عليها وتشجِّعها على الذهاب معها، وذلك لرغبتهما في شراء منزل في بيروت، وأنها ستكون في ضيافتهما، وسوف يحجزان لها غرفة في الفندق نفسه الذي سيقيمان فيه، حتى الانتهاء من تجهيز المنزل تمامًا، ويُصبح صالحًا للمعيشة والاستقبال، ومما أضعف موقفها وحسم حيرتها كذلك «يارا» التي استأذنت أمها لأن تقيم أيامًا معدودة مع أبيها، الذي أصابه مرضٌ مفاجئ، وتريد أن تكون بجواره في محنته. ترجَّت «ديجة» أمها «وهيبة»

كثيرًا أن تسافر معها، لكن الأخيرة اعتذرت بلطف، وتمنت لها قضاء وقت ممتع وجميل.

أحسَّت «ديجة» بمرور نسمة برد اقشعرَّ لها بدنها، وهي واقفة في شرفة الفندق القائم في منطقة جونية المطلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، استنشقت عبير الصباح النقي، وطفقت تتأمَّل المراكب الشراعيَّة الراسية على أرصفة الميناء، والزوارق البحريَّة وهي تجوب البحر ذهابًا وإيابًا، معتليًا سطحها سائحون تُظهر ملامحهم الابتسامة والفرح، وتراءى لها من بُعد التليفريك صاعدًا إلى أعلى قمة جبل لبنان بمنطقة حريصا، من موقعها راحت تتمعَّن في الجبال المغطاة بشجر الأرز، وفجأة سمعت طرقات على باب غرفتها، وما إن فتحت الباب إلَّا ورأت ابنة خالتها تستعجلها لتُتمَّ ارتداء ملابسها وتستعد لكي ترافقهما لتناول وجبة الإفطار.

- أنرتِ بيروت بقدومكِ حبيبتي.

قالها «جمال» وهو يتفرَّس بإعجاب في ملامح خطيبتهُ الأنيقة الهادئة.

- منيرة بأهلها.. امممم، ليلة البارحة قلت الجملة نفسها عندما أقللتني من المطار!

فابتسم قائلًا:

- وسأظل أكررها ما دمتِ في بيروت وفي حياتي.

ابتسمت «ديجة» خجلًا وقالت له:

- إن بيروت جميلة وأجواءها مريحة للأعصاب.

- نعم، وهذا سر تعلقي بها، وغدًا صباحًا سآخذكِ في جولة للتعرُّف إلى معظم ملامح المدينة ومعالمها.

بعد الانتهاء من شراء فستان يليق بدعوة الغداء، جلس «جمال» وخطيبتهِ يرتشفان قهوتهما في أحد المقاهي المطلة على صخرة الروشة التي أضافت لبيروت سحرًا فوق سحرها وفتنتها، ظل «جمال» يتأمل «ديجة»

مبتسمًا، حينها كانت ترنو بعينيها إلى الصخرة وهي سابحة في عالم آخر، عالم فُتح باب قفصه، لتحلِّق وتعانق السماء بروحها، تنتابُها رعشة تداعب قلبها، وفضاء شاسع يسافر فيه خيالها، وحدائق تتمنَّى أن تقطف أزهارها، فجأة تنبَّهت إلى وجود «جمال» فاعتذرت منه على شرودها، فما كان منه غير أن أمسك يدها وقبَّلها بشغف، مكتفيًا بالصمت، لم يمضِ نصف ساعة حتى عادت إلى الفندق من أجل أن تستعد للمشاركة في وليمة الغداء التي أصرت والدة «جمال» على استضافتها ترحيبًا بقدوم من ستكون قريبا كنتها وأقاربها إلى لبنان، بعد مرور ساعتين فتح «جمال» باب سيارته الجيب «رانج روفر» لـ«ديجة» وهو يصفِّر ويقول لها العذب مِن كلام الغزل:

- كم أنتِ فتنة ستصيب فتيات بيروت بالذهول!

ابتسمت بهدوء مخفضةً عينيها، متوجسةً خيفة من أن تصل أصوات التدليل والغزل وهمساتهما التي يغمرها بها خطيبها إلى أسماع ابنة خالتها وزوجها اللذين استقلا

المقصورة الخلفيَّة من السيارة، بُهرت «ديجة» بروعة الطريق المؤدِّي إلى منزل أسرة «جمال»، كان الطريق متعرجًا بين مزارع تفوح منها رائحة الياسمين، صعودًا إلى منطقة جبليَّة مرتفعة مُغطاة ومكسوَّة بشجر الأرز، رأت من بعيدٍ المدخلَ ذا البوابات الحديديَّة الكبيرة التي رُسم ونُقش عليها منظر أسدين رُفعت قوائمهما الأمامية تعبيرًا عن شجاعتهما وقوتهما، وما إن اقتربت من بوابة المنزل حتى فُتحت تلقائيًّا لترى عيناها المساحة الشاسعة الخضراء التي جعلت من فسحة البيت كأنَّها حديقة «كيوكينهوف» الهولنديَّة، أكبر حديقة زهور في العالم، استنشقت «ديجة» عبير الورد المتنوع الذي يغلب عليه الورد الجوري برونقهِ، ولمحت كثيرًا من الأنواع المختلفة من الزهور والرياحين التي تنشِّط أحاسيس الإنسان وتُلهِب مخيلته، فداعبت أناملها ورد الحب الأحمر، وأحسَّت بالغيرة مجسدةً في الورد الأصفر، واستنشقت الإخلاص في القرنفل الأبيض، وشغفت بأناقة الياسمين وبراءة

المارجريت، وعانقت شهرة التوليب، وغيرها من الورد الكثير الذي لا تعرفه، ولا تعرف معنى لغته.

نسيت نفسها وهي تداعب الزهور، ولم تلاحظ السيدة الواقفة على باب القصر، وبجوارها ابنتها وابنها، والخادمات ذوات الزي الأسود والأبيض الأنيق والقصير، اقتربت منها امرأة فاتحة ذراعيها على اتساعهما، وكانت ذات جمال يفوق الطبيعة، لوحة من الإبداع لا تقوَى على تحمُّل فتنته عينُ بشر، وإغراء قوام مثير كأنَّها فتاة في العشرين من العمر، تحيط بعنقها سلسلة ألماس تنتهي بحجر برَّاق لا يعرف قياس قراريطه مِن كبرهِ، خطواتها وابتسامتها كأنَّها سيدة لبنان الأولى. احتضنتها بحب وود ورحَّبت بها وبضيفيها، وما إن دخلتا والبقية خلفهما إلى الشرفة الأماميَّة التي كانت مرتفعة بخمس درجات عن باقي أرضية القصر، إلَّا ورأت «ديجة» بيروت بجميع بيوتها وجبالها وبحرها أسفل منها، وقفت مصعوقةً من سِحر المنظر، خطف المشهد فؤادها فقد كان ملمحًا تشهقُ له

الأنفاس، وما هي إلَّا ثوانٍ حتى انضمت إليهم خالة «جمال» التي لم تكُن تقل جمالًا ورونقًا عن أختِها، وتميزت أيضًا بابتسامتها الخلابة وعينيها الحانيتين، ثم جاءت عمته في النهاية..

كانت الأجواء حميميَّة، وتناثرت الأحاديث بين طبيعة لبنان الخلابة، وروحانيَّة طقوس العبادة في السعوديَّة، وفي أثناء وجبة طعام الغداء التي امتلأت فيها المائدة بما لذَّ وطاب من الأكلات اللبنانيَّة، بدايةً من شوربة العدس والخضار، ثم السلطات بأنواعها، والتبولة والفتوش وسلطة الروكا اللبنانيَّة، وبجوارها المقبلات: الحمص البيروتي والكبيبة الشامية، والبطاطس المحمرة، والبوريه باللبن الرائب، ولم تخلُ كذلك من يخنة القرع ومكمور الباذنجان، نهايةً بالمشاوي التي لا يُعلَى عليها في العالم العربي، لم تقاوم «ديجة» الحلوى، ولم تستطِع أن تكبح شهيتها عندما رأت غزل البنات الذي التهمته بكل شهية وشغف، وفي أثناء ارتشاف الشاي الأخضر نهضت والدة

«جمال»، طالبةً من «ديجة» مرافقتها إلى الشرفة، في خلوتهما تودَّدت إليها، وأخبرتها بشدة حبها ابنها، ومدى معاناتها وابنها بعيدٌ عنها، ثم رجتها بلطف أن تعوِّضه عن إحساس الغربة، ولا تفتأ تمتدح «جمال»، وأنه، على الرغم من عصبيتهِ واندفاعه وراء طموحاته، فإنه ما زال طيب القلب حنونًا ومعطاءً بِلا حدود.. في ذلك الوقت، خطفت «ديجة» نظرة إلى ذلك الشاب الذي ظهر ليغيِّر حياتها دون أي سابق إنذار. بدأت أطياف المغيب، وعلى الرغم من تعالي أصوات الضحك وتبادل الفكهات والمواقف الطريفة التي ولَّدت جوًّا من الألفة والانسجام بين الجميع، فقد استأذنت ابنة خالة «ديجة» وزوجها بالرحيل كيلا يشقَّا عليهم، ولكي ينالوا قسطًا من الراحة. تجمَّع الضيوف كلهم عند مدخل القصر للتوديع وتبادُل الوعود بتلبية دعوة خالة «جمال» إلى حضور وليمة الغداء في منزلها في اليوم التالي.

لم تستطِع «ديجة» النوم، وسهرت متنقلةً بين سريرها والشرفة المطلة على البحر، تغازلها نسائم الأمواج الهادئة، كان منظر النجوم في قبة السماء مغريًا، وأضواء مصابيح الطرقات لافتة للأنظار، ونغمات الموسيقى التي تنبعث من أماكن السهر واللهو تطرب أُذنيها، شعرت بارتياح دون أن يعكر صفوها أي تفكير أو ذكرى ماضٍ انقضى، ورأت عاشقين يجوبان ممشى الشاطئ ذهابًا وإيابًا، وتساءلت أيمكن لقلبها، الذي دفنتهُ بيدها في جُب مظلم، وفي الأعماق، أن يحيا مرة أخرى لينبض؟ أيُعقل أن ما قرأته بين صفحات الكتب يصير واقعًا وحقيقة مشهودة؟!

إن القلب لا ينبض إلَّا بالحب، وليس العيبُ أن نعشق ألف مرة، فمن قال: «ما الحب إلَّا للحبيبِ الأولِ» غير منصف، ولم يرَ الجمال بعيون الآخرين؛ فالحب الصادق يجُبُّ ما قبله، وأن يأتي متأخرًا لننعم بهِ خيرٌ من ألَّا يأتي أبدًا، أو أن نبقى تحت مظلة الوهم والذل، ونرضخ لأي كلمة حب نسمعها دون أن نشعر بها، لا يحقُّ لنا أن نحزن

على أوجاعنا؛ فالماضي لا يعود ولا يتكرَّر إلَّا بغبائنا أو ضعفنا، وشريعة دستور الحياة أن نسعد بها ونتذوق حُلوها، حقًّا قد يأتي مَن يكون العشق الأول، ويمحو ذكرى مَن مضى إلى ما مضى فيتملَّكنا ويتملَّك جوارحنا، فلا نرى سواه في أحلامنا وواقعنا.

وقبل أن تسقط في سُبات لا تعلم مدى قراره، تراءت لها صورة «أيمن»، مَن قتل الحب وشوَّههُ في نظرها!

وهما في المقصورة (اللوج)، وقبل أن يبدأ الفيلم، شبَّك «جمال» كفَّه بكفها، ورنا إليها هامسًا في أُذنها:

- قد داعبت غمزةُ خدكِ منامي.

التفتت إليه وتأمَّلته لحظة، ومن ثَمَّ أشاحت بوجهها خجلًا.

بعد الانتهاء من مشاهدة الفيلم الرومانسي، اقترح «جمال» ارتشاف قهوة الصباح في بعض المقاهي الموجودة في مول «إيه بي سي الأشرفية»، حيث شاهدا الفيلم في إحدى دور سينماته قبل قليل.. وهما يتنشَّقان رائحة القهوة الذكية راحا يتذكَّران ليلة البارحة، وامتدحت «ديجة» روعة جمال منزل عائلة خطيبها، وإطلالته الرائعة والأكل الشهي اللذيذ، وصحبة أهلهِ التي لا يُمل منها، أما هو فقد شرع يتحدث عن طموحاته، ووضْع خطط كثيرة ليسعدها، وليعيشا معًا ما تبقَّى لهما من عمر في غمرة الفرح والسعادة، سرحت منه «ديجة» محدثة نفسها، كانت تقارنه بـ«نواف» الأرعن المتشائم المتكبِّر الذي استحالت معهُ الحياة، وكيف أن «جمال»، على الرغم من حظوتهِ ووسامته، متواضع، ويجيد الغزل ويشاركها أفكاره ومشاريعه، صحيح أن معظم وقته مكرَّس للجري خلف مستقبله، ومحاولاته أن يقف من جديد على قدميه، دون أن يطلب عونًا من أهله، خصوصًا عمه الذي

حرمه عطايا تجارته وأرباحها، وعلى الرغم من كل تلك المشاغل فإنه ما زال يضع «ديجة» في مقدمة أولويَّاته، بيد أنها لا تعلم لِمَ لَمْ ينبض قلبها بالحب تجاهه حتى الآن!

*****

(٩)

وهي على مقعد الطائرة، تشاهد من النافذة منظر الإقلاع، والبحر الأبيض المتوسط بجمالهِ يودعها، وجبال بيروت وأشجار الأرز والزهر والورد تستودعها راجيةً منها البقاء، تمنَّت لو بقيت.. تمنَّت لو أنه لا ماضي لها يؤلم الأفئدة، لكن لا بُدَّ لها من الرجوع؛ فوطنها خيرُ أرضٍ في الوجود، وابناها وأهلها هم جنتها للخلود، ومن فوق الغيم والسحاب تذكَّرت دعوة خالة «جمال» التي غمرتها بكرم الضيافة وحُسن الاستقبال، وأهدتها خاتمًا من الألماس بمناسبة أنها أصبحت فردًا من العائلة، لم تقل فخامة منظر منزلها وجماله عن منزل أسرة خطيبها، ولم تنسَ توصية والدته وهما وحدهما في الشرفة، وأمَّلت نفسها

بأنها إن لم تستطِع أن تحبه، فعلى الأقل ستجتهد كي تكون مصدرَ سعادةٍ له. تذكَّرت روعة بيروت، والأماكن السياحيَّة الرائعة التي زارتها مع «جمال»، تعلَّقت بيدهِ وهما في التليفريك حتى بلغت مزار سيدة لبنان، المعلم السياحي والديني المهم للأديان الأخرى، ومن ثَمَّ تنفَّست الهواء الطلق وهي تجوب شوارع وسط المدينة، بدايةً من الحمراء، مرورًا بساحة النجمة، حتى بلغت السوليدير، المنطقة التي عُمِّرت من جديد بعد أن دمرتها الحرب الأهليَّة، وكعادتها لم تتخلَّ عن زيارة المتاحف، ومنها: متحف روبرت معوض، ودُهشت لوجود تشكيلة رائعة من الكتب القديمة والفخار والسجاد والتحف، ومن ثَمَّ متحف بيروت الوطني، الذي افتُتِح بعد الحرب العالميَّة الأولى، وهناك زاغ بصرها بين مئات الألوف من القطع الأثريَّة التي يرجع بعضها إلى العصور الوسطى وعصور ما قبل التاريخ، وأزمان المماليك والحضارة الإسلامية، تمعَّنت وحرصت على استعراض تطور حياة الإنسان من

العصر الحجري القديم وحتى نهاية العصر الحجري الحديث، وما إن انتهت من زيارة المتحف، التي كادت تهلك فيها لما نالها هناك من المشقة والتعب، حتى ألحت بغنج ودلال على «جمال» أن يلبِّي آخر طلب لها، ويصحبها لترى مغارة جعيتا الواقعة على نهر الكلب، تحاملت على نفسها، متناسيةً ألم قدميها مِن كثرة المشي، لكي تمتِّع ناظريها بمشاهدة المغارة التي تعتبر من أشهر كهوف بيروت.

كانت «ديجة» تتمشَّى خلال النفق البالغ طوله مائةً وعشرين مترًا ببطء من سحر المكان، تراقب الأغوار والأعمدة الكلسية، وكيف قُسِّمت المغارة إلى طبقتين: عليا وسفلى. وتراقب المناظر الخلَّابة الفريدة، متسائلةً عمَّن خلق هذا الجمال كله، هل يمكن أن ينسى أَمَته الضعيفة التي تبحث عن السعادة في كنف زواج شرعي ولا تجدها؟!

على الرغم من كل ما تمتَّعت به «ديجة» من فسح ونزهات، فإنها حزنت لحرمانها زيارة مواقع كثيرة بسبب

ضيق الوقت، وعاهدت نفسها على أن تكون لها زيارة أخرى إلى بيروت تبقى فيها مدةً أطول!

استغرقت رحلة العودة أكثر من ساعتين، تخللهما أفكارٌ وتساؤلات: هل من الممكن أن يعيش المرء بِلا مشاعر؟ هل من الممكن أن أكتفي بالاهتمام والعطاء وأسباب السعادة بلا نبض حقيقي يهز فؤادي؟ لماذا نعطي الحب كل الاهتمام، ونضحِّي بباقي ما يُقدَّم لنا من تضحيات وفنون تحبُّب ومودة؟ عجيبةٌ قلوبنا، إن أظهر لنا الحبيبُ مجردَ ابتسامة أقمنا ليلنا على هناء وفرح، وإن جُرِحنا منه سامحناه بكل بساطة، ولو أتى من لم يخفق له القلبُ حاملًا على يديه قلبَهُ وعقلَهُ ومالَهُ ووقتَهُ لا نراه إلَّا كأحمق أو تافه أو متطفل مرفوض، نضيِّع بأيدينا مَن يقدِّرنا، ونسعى لاهثين خلف مَن يعذبنا مستنفدين كل ما أوتينا من قوة وصبر وقدرة على التحمُّل! نبرِّر لأنفسنا أنه في الحب لا توجد كرامة.

ابتسمت «ديجة» ابتسامة مستهزئة، وقالت بصوت يسمعه عقلها:

- ما أفادني الحب وما نفعني الإخلاص، لا شيء سوى تجرُّع مرارة القهر، وإضاعة ما تبقَّى لي من أيام معدودة في العمر، فلأجرب العِشرة والمودَّة اللتين لا تموتان وتبقيان كأجمل ذكرى، ولأقدم كل ما لديَّ من أنوثة وعطاء واهتمام لمن يستحقني، وليس لمن قال لي كلمة حب فارغة!

كان مراسم حفل الزواج جميلًا وبسيطًا ومختصرًا، الحضور معدود، اقتصر على أهل «ديجة» وبعض رِفاقها وزملائها القدامى.

مضت ليلة الدخلة بالنسبة لـ«ديجة» بسلام وهدوء، ولم تجتَحْها العواصف المحملة بنيران الشهوة وحرقتها، حاولت مرارًا وتكرارًا أن تندمج وتعيش اللحظة، لكن تبًّا لذاك القلب حينما لا ينبض حبًّا لرجل أتاه طالبًا رباطًا شرعيًّا معلنًا، ويستميت ويجف نبعه، ولا تنفجر شهواته إلَّا والعشق يسوده ويتسلَّط عليه، انتهت من تمثيل دور

البطولة بنجاح، حتى أشبعت رغبات «جمال»، لم تشأ أن تستسلم لخمود رغبتها، وتمثل دور الضحية وهي لا تؤمن بأدوار الضحية، وإلا لكانت قد استسلمت من أول يوم عرفت فيه مَن تكون، كابرت وقاومت كي لا يفشو ضُعفها، ولا سر مَقتها للحياة!

شعر «جمال» بتردُّد «ديجة» في الارتباط بهِ، ولم يقتنع بإجابتها بأن من الصعب على الفتاة السعوديَّة أن تتزوج غير ابن وطنها؛ فهي لا تريد الاغتراب، حاول التقرُّب منها كثيرًا لكن لا حياة لمن تنادي، كان يجتاحه إحساس النفور، خصوصًا عندما يلمس منها التهرُّب والشرود، لكنه في غربة ووحدة، وهو لا يستطيع العيش دون أنثى تُشبع رغباته وتؤنس وحدته، شعر بنشوة عجيبة عندما رآها أول مرة، لكن ذكاءه لم يخُنْهُ، كان يعلم ألَّا سبيل للوصول إليها سوى عن طريق الزواج، والزواج بالنسبة له في تلك الحالة منفعته أكثر من ضرره، فقد أخبرهُ أحد أصدقائه بأن حلمه أن يتزوَّج فتاة سعوديَّة ليضمن الإقامة الدائمة في

السعوديَّة، وليخفَّ عنه عبء تكلفة تجديد أوراقه الثبوتيَّة، طفق بوضع الخطط الإستراتيجيَّة، مستعينًا بخبرتهِ الطويلة مع النساء، محاولًا أن يوقعها في شباك مصيدته وينال قلبها، وبالتالي يفوز بثقتها، تردَّد للحظات من تخبُّط أفكارهِ واحتار؛ فهو لا يريد أن يكون زواجه قائمًا على المصلحة وحسب، بل طمع في أن يذوق طعم الاستقرار، لكن «ديجة» أوصدت كل الأبواب في وجهه عندما أخبرته بأنها تكتفي ولا تريد الإنجاب، لم يشعر بالحنق من شرودِها الدائم، بقدر ما أحس بالإهانة عندما أشبعت رغبته ليلة الدخلة من غير أن يتحرَّك لها ساكن، حينها راوده الشك في برودِها المَقيت وفكَّر في احتمالية وجود عشق خفي ووله دفين، لم يرد أن يترك نفسه لسوء الظن يتلاعب به، فترك الأمر للأيام التي ينجلي معها الغموض، وتسقط الأقنعة، ويبرح الخفاء، حتى لو بعد حين.

بعد مرور ثلاثة أشهر على الزواج، كانت «ديجة» تقضي معظم وقتها في بيت «وهيبة»، لتعينها وتساعدها على مشاق ما أصابها من مرض، لم تجد داعيًا إلى أن تستقر في الفيلا التي استأجرها «جمال» لتكون مملكتها الخاصَّة بها، فطلبت منه أن ينتقلا للعيش في منزل أمِّها حتى تكون بجوارها في محنتها، ولتوفر عليه قيمة إيجار المنزل، رضخ «جمال» لطلبها بشريطة أن يدفع لأمِّها مقابل إقامتهما لديها. لكن مع الأيام بدأ ينتابها الملل من البقاء في المنزل، وهي غير معتادة هذه الحياة التي لا يوجد فيها سوى روتين يومي من تناول الطعام والنوم، وانتظار «جمال» حتى يعود ويطلب تلبية نداء آخر الليل، ناقشت معه موضوع أن تعود إلى العمل، وهنا اقترح عليها مشاركته في افتتاح وكالة سياحة وسفر، تكون باسمها وتحت إدارتهِ، بحكم علاقاته التي ستجلب عقود العمل للشركة. قبلت «ديجة» الفكرة، وفورًا بدأ مزاولة نشاطه بنجاح، وتفنَّن في تنظيم رحلات عمرة لسيَّاح مسلمين من أوروبا، تبدأ بالإقامة لمدة ثلاث

ليالٍ بجوار الحرم المكي لأداء فريضة العمرة، ومن ثَمَّ الانتقال برًّا إلى المدينة المنورة لزيارة الحبيب المصطفى (ﷺ) وبقية المزارات، كمسجد قباء، والمساجد السبعة وجبل الرُماة وغيرها.

في بادئ الأمر، لم تستوعب «ديجة» طلب «جمال» أن تعطيه تفويضًا عامًّا كي يدير أمور الشركة، على الرغم من أنها كانت تسير على خير حال، ولا توجد أي عراقيل، إلَّا أنها لم ترغب في اختلاق مشكلات من لا شيء، قد تؤدِّي إلى تحطيم زواجها، فنزلت على ما أراده وخطط له على مضض، واكتفت هي بحياتها الزوجيَّة الروتينيَّة والمملَّة!

بعد مرور قرابة ثلاثة أعوام مِن الزمن، طلبت من زوجها أن تشهد الاجتماعات والفاعليات التي يحضرها دوريًّا مع بقية الشركات المتعاقدة معهما، سواءٌ داخل السعوديَّة أو خارجها، واندهشت من رفضه البات، ما أنبت في قلبها بذرة الشك، فألحَّت عليه وتمسَّكت بموقفها، حتى وافق نزولًا على رغبتها كرهًا وليس طوعًا، كان يراودها شعور غريب

فيه من الريبة والشكوك ما يُقلقها، ولكن لا تعلم ماهيَّة الأسباب وراء ذلك الإحساس المقيت، ملأتها مشاعر التوجُّس والقلق، خصوصًا عندما توطَّدت علاقتها مع أصحاب الشركات وزوجاتهم، كانت عينا «جمال» كالمرقب، تترصَّدانها أينما ذهبت، وبالأخص عندما يُسرف في شرب الخمر، أزعجها ذلك الأمر في بدايته، على الرغم من أنه تكرَّر في معظم اللقاءات والاجتماعات في رحلاتهما وجولاتهما الخارجيَّة، لكن طموحها ورغبتها في أن تتعلم أسرار العمل وتوسِّع دائرة علاقتها جعلاها لا تلقي بالًا لتصرفاته ونظراته الغريبة التي لم تخفت حدتها مع مضي الأعوام.

في بداية العام الخامس من ارتباطها بـ«جمال»، وتحديدًا بينما كانا في كوالالمبور، عاصمة ماليزيا، وفي خضم أحد الاجتماعات، استقبلت رسالة نصيَّة من محاسب الشركة سوداني الجنسيَّة، بأنه قد أُنهِي عقدهُ، وفُصِل من عمله بالشركة لاكتشافه عمليات اختلاس تقدَّر بثلاثمائة ألف ريال سعودي، ارتبكت ووقفت عاجزة عن التصرُّف، ثم تداركت الموقف وطلبت وقتًا مستقطعًا للراحة لمدة ربع ساعة.. بعد تفكير عميق، بادرت، دون تردد، بالاتصال بالمحاسب المذكور لاستيضاح الأمر، لكنه لم يرد على المكالمة، فاتصلت بابنها «سلطان» وطلبت منه أن يذهب إلى مقر الشركة، ويسحب منها جميع الأختام المهمَّة، ويجعلها في حوزتهِ حتى تعود، ثم أجرت اتصالًا آخر بمحاميها، وطلبت منه أن يلغي الوكالة العامَّة التي منحتها «جمال»، ويستبدل بها وكالة خاصة تعطيه فقط أحقيَّة مباشرة الأمور الإداريَّة.

بعد الانتهاء من الاجتماع، الذي تخللته وجبة غداء، صعدا معًا إلى جناحهما الخاص، وما إن دخلا إلَّا وبادرت «جمال» بسؤال مباغت عن سبب فصل المحاسب المالي للشركة، فما كان منه إلَّا أن حدجها بنظرة عميقة فترة طويلة، ومن ثَمَّ ابتسم ابتسامةً محملةً بالمكر والخداع، وقبل أن تفتح «ديجة» فمها وتنطق معاودةً محاولةَ استيضاح حقيقة الأمور وفهمها منه، وجدت «جمال» يستخرج من حقيبته كمية بودرة بيضاء، تراها لأول مرة في حياتها.. وقبل أن تنبس بكلمة إضافيَّة، اتسعت عيناها رعبًا، عندما راح يستنشق المسحوق الأبيض الغريب، مستخدمًا أنبوبًا زجاجيًّا رفيعًا ومجوفًا، غير مبالٍ أو آبه لوجودها أمامه!

*****

(١٠)

ارتمت «ديجة» على سريرها وأسلمت جَفنيها للنوم العميق، بعد تجشُّم مشاق سفر استغرق أكثر من تسع ساعات، وهي جالسة على مقعد الطائرة، استغرقها النوم الذي لفَّ جسدها ووعيها بغلالة رماديَّة لم يكُن من السهل أن تتبدَّد وتتركها حرة في سلام، فلم تحس بنفسها ولا بالمُنبِّه الذي ظلَّ يطلق أجراس الإنذار كل خمس دقائق، معلنًا أنه قد حان موعد الاستيقاظ، لكنها صحت أخيرًا، والخمول قد هيمن على إحساسها ومن قبلهِ جسدها.. بعد الإفاقة، حلَّقت بخيالها إلى لحظات الماضي غير البعيد، وتذكَّرت إحساسها عندما رأت «جمال» يتعاطى المخدِّرات أمام عينيها، صُدمت ووقفت مذهولةً من هول

ما رأت، فلم ينتَبْها الشك من قبلُ فيَّ أنه قد يصل إلى هذه المرحلة من الضياع والانحطاط وتعاطي الهيروين، شعرت بالخوف وطلبت منه أن يسمح لها بالعودة على أول طائرة، لكنه لم يستجِب وكشَّر عن أنيابهِ وانقضَّ عليها منتهكًا كل حدود العلاقة الحميميَّة الواجب توافرها، غير مبالٍ بما عانته أو شعرت بهِ، لم تستطِع المقاومة؛ فقد كانت مجرد جسدٍ بِلا روح، جسدٍ يريد تحطيم كل القيود. ما إن انتهت من بكائها تحت شلَّال الحمام على ما أصابها مِن عظائم وابتلاءات، حتى عجَّلت بتجهيز حقيبتها، وانطلقت إلى المطار لتعود على أول رحلة متجهة إلى السعوديَّة، وخلفها «جمال» يجر حقيبتَهُ بكل هدوء واستهتار.

وحينما خطت أخيرًا داخل منزلها المحبوب، كانت قد اتخذت قرارها، وعقدت العزم على إغلاق صفحة أخرى مريرة من صفحات حياتها الملطَّخة بتجارب شائنة ومهلكة ومحطِّمة للروح.. وبعد ساعات من التفكير العاصف، دخلت عليها العاملة المنزليَّة، وفي يدها الهاتف

الأرضي، لتخبرها بأن زوجها يتصل بها، وكانت تلك المرة العاشرة التي يحاول فيها التواصُل معها منذ وصولها وعودتها إلى المنزل.

تحرَّزت للحظة، قبل أن تحسم أمرها وتقرر مواجهته دون تردد..

- أعلم أنكِ غاضبة مني، لكني لم أشأ أن أخبرك كي لا تُصابي بالهلع، وأريدكِ أن تعرفي أن هذه كانت ثاني مرة في حياتي، ولم أتعاطَ من قبل، لكن ما مررت به في حياتي من مخزيات أجبرني أن أصل إلى هذه المرحلة!

- لا يهمني ما رأيت، لكن من فضلك أريد الطلاق بكل هدوء، ودون إثارة أي مشكلات لو سمحت.

- «ديجة»، أرجوكِ، ارجعي عن هذا القرار؛ فأنتِ تعلمين مقدار حبي لكِ، فأنتِ زوجتي وشريكتي.

- أرجوك، أنا مُصرَّة على موضوع الطلاق، وهذا أمر لا رجعة فيه، أما فيما يخص الشراكة فأنا لم أعُد أثق بأمانتك

ونزاهتك، خصوصًا عندما علمت بعمليَّة اختلاس الأموال وفصل المُحاسب ظلمًا.

- إن كانت هذه رغبتكِ فسأحترمها وألبِّي طلبك، ولكن بخصوص الشراكة أيمكن أن تعيدي النظر والتفكير في الأمر؟ والمحاسب جرى الاستغناء عنه بسبب وجود عجز في ميزانيَّة الشركة، ما اضطرنا إلى الاستغناء عن بعض الموظفين الزائدين على الحاجة، وهو للأسف أحدهم.

لبَّى «جمال» طلب «ديجة» بكل استسلام وهدوء، بعد اجتماع قصير في أحد المقاهي، لوضع جميع النقاط فوق الحروف، فيما يخص استمرار الشراكة بينهما.. وفي أثناء توصيله إياها إلى منزل أمِّها، وقبل نزولها من السيارة، قال لها:

- أنتِ طالق!

قالها وقلبه وعقلهُ يأبيان هذا القرار، بعد زواج دام خمسة أعوام، فيها كثيرٌ من الذكريات الجميلة التي لا تُنسى.

وهكذا طُويت صفحة أخرى من صفحات حياة تلك المرأة التي خبرت في حياتها جميع أنواع المِحَن والابتلاءات، لكن كأمٍّ أسبرطيَّة مناضلة، قررت أن تتغلَّب على انتكاساتها المتكررة، وتعيد بناء حياتها مرة أخرى، على أساس جديد، لم تنخره الآفات، ولم تضعفه التجارِب المريرة المتتالية!

التحق «سلطان» بمرحلة الثانويَّة العامَّة، لكنه كان متهاونًا في الدراسة كعادتهِ، وبدأ بتكوين الصداقات، لكن للأسف كان رفاقه مِمَّن خاب رجاؤهم وانحرفت أفكارهم، فأصبح يقلِّدهم في الغياب عن الحصص الدراسيَّة كثيرًا، ما عرضه أكثر مِن مرةٍ للفصل والطرد، وظلَّ موزَّعًا بين التقاعس في الدراسة والرسوب، وبين محاولاته البحث عن عمل.. لم تمر عليه إجازة مدرسيَّة إلَّا وهو يعمل في أحد

الفنادق موظف استقبال بشكل مؤقت، وبمجرَّد تخرُّجه في الثانويَّة، بعد معاناة ومشقة، التحق بالعمل في إحدى الشركات المشغلة في المطار، لكنه لم يستمر في عملهِ أكثر من عام ونصف العام، عاد بعدها إلى مدينة والدهِ ليلتحق بالجامعة مختارًا تخصُّص الموارد البشريَّة، بيد أنه كان يزور والدته في العطلات والإجازات، ويبقى عندها بعض الوقت.. وفي واحدة من إجازاته السنويَّة، لاحظت «ديجة» عليه بعض التصرُّفات الغريبة، وأرَّقها منظر جسده الذي أصبح نحيفًا وهزيلًا، وبعد مراقبة دائبة وضغوط منها، أقرَّ لها بتدخينه سجائر محتوية على الحشيش، غضبت واستنكرت واحتارت؛ فهي لا تعلم كيف تتدارك هذه المشكلة وكيف تتعامل معها، ومن كان سبب وصول ابنها إلى هذه المرحلة، أهو زواجها وانشغالها الدائم عنه، أم والده الذي لا رجاء منهُ، ولا يمنح ابنه من مقومات وواجبات الأبوة سوى النفقة؟! وما كان منها سوى أن تجعله يعيش معها دائمًا ليكون تحت نظرها، تركت كل

مشاغل الحياة وتفرَّغت له، حتى تماثل للشفاء، وعاد إلى حياتهِ الطبيعيَّة بعد انقضاء عامٍ صعب ومرير، وبعد أن أخذت عليه كل العهود والمواثيق، وتلقَّت منه وعدًا بألَّا يعود إلى طريق الضلال الذي كاد يودي بهِ وبمستقبلهِ، رجع مرة أخرى ليعيش مع أبيه، وبدأ من جديد والتحق بمعهد الإدارة، لكنه ظلَّ يطمح إلى أن يكون له يومًا ما مشروعه الخاص بهِ.

أما «يارا» فلم تعُد تمازح أمها كثيرًا كسابق عهدها؛ إذ بدأت تشعر بأنها كبرت ونضجت بما يكفي، وعلى الرغم من أنها لم تبلغ الثامنة عشرة من العمر، فإنَّ طموحاتها كانت لا حدود لها؛ انتسبت إلى الجامعة واختارت تخصُّص الإعلام لحبها الأضواء، ولإتقانها فن الخَطابة الذي ورثته عن أمِّها، وعلى الرغم من أنها تمنَّت أن تحقِّق أمنية أمها وتصبح طبيبة، فإنها مع ذكائها وتفوقها الدراسي لم تستطِع أن تتغلَّب وتنتصر على نفسها لتحصل على المعدَّل المطلوب لتدخل كلية الطب.. نعم، كان ذلك حُلم أمها،

لكنه كان حُلمها كذلك، وتمنَّت أن ترتدي البالطو الأبيض، وتعالج الناس ممَّا أرهقهم وأرَّق منامهم من آلام وأوجاع، كانت تطمح إلى أن ترسم الابتسامة على وجوه المرضى، وأن تسمع حار الدعاء لها من أفواههم، لكن «يارا» ظلَّت في نزاعٍ طويل بين عقل واعٍ ينير دربها ويجعلها تتجاوز العراقيل وتركِّز على تحديد أهدافها وتحقيقها وهي مبتسمة للحياة في العلن، وبين قلب تحسَّر وتألَّم وانتحب ليالي طويلة في الخفاء على نشأتها في تشتُّت، لم تتمتع بمنزل ثابت ولا استقرار، متنقلةً بين أب مستهتر، كان جُلُّ همِّهِ السهر والنساء، وأُمٍّ مكافِحة تبذل جهدها لرعاية ولديها وحدها محرومةً من كل دعم ومساندة مطلوبَين. كل هذا التنقل وتحمل المعاناة لإرضاء سبب وجودها في الحياة جعلها تستخدم كل أساليب المكر والخِداع لإعادة بناء أسرتها ولمِّ شملها تحت سقف واحد، لعلَّها بذلك تتناسى قسوة الماضي، لتحيا في نعيم بين يدي أبٍ حنون، يعطف عليها كثيرًا، ويغمرها بالحنان والتدليل على الرغم من

انغماسه في حياة لاهية لا معنى لها.. ولأنها تعلم جيدًا برغبته المستميتة في إرجاع أمها، نادمًا على ظلمهِ وخيانتهِ إياها، وهي التي أحبته وعلَّقت آمالها عليه في أن يشفي جُرحها من حبيبها الأول، وهي لا تزال فتاة صغيرة لا ملجأ لها سوى حِضنه، وفي كنف أم تستمد منها القوة والصبر والابتسامة على الرغم من قهر الحياة. نعم، ورثت مِنها خِفَّة الظِّل والمرح، لكنها تدرك جيدًا أن أمها ذاقت الأمرَّين، وأن ابتسامتها وضحكاتها نابعة من قلب جريـح، وأنها لطالما كافحت وناضلت، وعملت ليل نهار كي توفِّر لهما كل أسباب السعادة، تعرف أنها ضحَّت وتنازلت عن الكثير لتحيا هي وأخوها «سلطان» في أمان. آلمها كثيرًا منظر الدموع في عيني أمها وهي تنصبُّ كأنَّها سيلٌ عارم لا آخر له، وذلك حين باحت لها بالسر الذي أطلعتها عليه الجدة بعد إلحاح دام سنين بأنها ليست لقيطةً ولا بنت حرام، مثلما عاشت عمرها كله تعتقد، فتوجعت قهرًا وهي ترى «ديجة» تنهار مرددةً بمرارة:

- أبعدَ ثلاثين عامًا من عمري كنتُ أحياها على أنني لقيطةٌ وابنةُ حرام بعين منكسرة، وخاطر لا يحق له العتاب أو الغضب، أكتشف أنني لستُ كذلك؟!

كان الأمرُ مؤلمًا للأم جدًّا، لكن الابنة كان الألم قد أنضجها مبكرًا جدًّا، فتفهَّمت كل إجراء اتخذته أمُّها في حياتها، وتفهَّمت مغزاه، لم تغضب منها في الماضي حين تزوجت بـ«جمال»، على الرغم من رفض كل جوارحها هذا الارتباط، كانت «يارا» تحس تجاهه بعدم ارتياح، لكنها احترمت قرار أمها حينذاك، ولم تشأ أن تقف عقبة أمام سعادتها، أرادت أن ترى الابتسامة الحقيقيَّة على شفتيها، أحبت أن تراها تنعم بنوم عميق بلا كوابيس تتخلَّله ولا قلق يقطع عليها كل ساعة إغفاء، اختلقت الأعذار عندما رأتها مترددةً في السفر إلى لبنان، على الرغم من احتياجها القوي إلى التغيير والبعد قليلًا عن ثقل المسؤوليَّة، فكذبت عليها بشأن مرض أبيها، لكي تسهِّل عليها اتخاذ قرار السفر.. نعم، كان غاية طموحها أن تراها في أحضان والدها

من جديد، لكن سعادة «ديجة» لديها أهم من آمالها الشخصيَّة، لكن الأمل الذي ملأ قلبها راح يتبدَّد حين رأت في منامها بيت أمها وهو يتشقق، والشروخ تكاد تبتلعه وتهوي به متحطمًا في غير رحمة ولا فرصة للتعويض أو إنقاذ ما يمكن إنقاذه!

*****

(١١)

في مدينة جِدَّة، وأمام البحر تحديدًا، جلست «ديجة» وعيناها كليلتان؛ فقد أرهقها كثرة النحيب والبكاء، جلست تتأمَّل وهج النجوم وتلاقي الأمواج، القمر حاضر لكنه حائر ومتردد، إضاءة الشوارع باتت خافتةً معلنةً قرب وقت البزوغ، الناس في سُبات، والهدوء يعمُّ المكان، لا يقطعه سوى صوت ارتطام الأمواج بالصخور، وصوت أفكارها التي بدأت تدلُّها على طريق الاستسلام، لا تتذكر أحداث تبنيها وهي ابنة العامين ونصف العام، لكنها رسمت القصة في خيالها لامرأةٍ اختارت أن تتبنَّى طفلة من دار رعاية الأيتام لأسبابها الخاصَّة، أهمها: خوفها العارم أن تموت وحيدةً بِلا رفيقة ترعاها وتلبِّي لها احتياجاتها، أو شخص يسمعها

حين تريد تقمُّص شخصيَّة الأميرة لتحكي أمجادها مرارًا وتكرارًا، وانتصاراتها التي ذبلت مع مرور السنين.. راحت تستشعر الأنين داخلها مِن مُر السنين، أنين مكتوم ومُتحفَّظ عليه كفضيحة، لم يسمعه سوى فؤادها المكسور، تراجع عقلها وهي تقف على الصخور غير مباليةٍ بالأمواج من حولِها، لا تلقي بالًا إن كان الموج المتلاطم سيجرفها إلى القاع، أو يلقي بِها لترتطم بأحد الأرصفة، أو تقع على طريق صلب وقاسٍ، حدَّثت نفسها بصراحة وفجاجة:

- نعم، أنا وبكل بساطة عشتُ ثلاثين عامًا من عمري وأنا لقيطة، عشتُ وأنا أرى نفسي غلطة غير شرعيَّة، ورأيتُ في أعين الناس أنني مجرد فتاة أُهمِلت مثل القمامة، ولكن ليس داخل ستر حاوية، بل في الشارع، على مرأى من الجميع، وطني لم يبخل عليَّ بالمأوى والمأكل والمال.. نعم، منحوني الأولويَّة في التعليم، والتوظيف في أي زمان وأي مكان، فأصبحتُ مسؤولةً منهم، لكن للأسف، فقد

كان كل شيء في حياتي مشوشًا ومتعارضًا؛ يزوجونني، وفي الوقت نفسه يلقون بي بين أسوار الدار المتجهِّمة حين أختار الطلاق فرارًا من تعاستي وشقائي، وعتْبي عليهم أنَّ أحدًا لم يرد لي اعتباري، ولم يحاسِب أو يعاقِبْ مَن تسبب في وجودي خطأً في المكان الخطأ. وُلدتُ في مستشفى النساء والولادة بعدما جلبوا السجينة من بين القضبان التي تحرس جهامة السجن وقسوته، صراخي حينها لم يكُن تألمًا من استنشاق أول نسمة هواء في حياتي، بل كان استنكارًا للسجن الذي مكثتُ بهِ تسعة أشهر، لم أشعر فيه براحة، ولم أسمع سوى أنين وبكاء امرأةٍ قد ظُلمت من أبيها.. ووجوه الحاضرين حينذاك كانت إضافة مروِّعة لعذابي، لم أرتشف قطرة حليب من ثدي كان مذاقه علقمًا ومرًّا.. الحقيقة، لم أكُن أعلم صدر من هو، أنجبتني امرأة حُكم عليها بالزنا وفعل الفحشاء من القضاة، وقُضي عليها بالفجور والعهر من أبيها الذي تبرَّأ منها وأدخلها السجن ظلمًا بيديه، ليغسل عاره أمام شيطانه الذي تلبَّسه،

ولتجهض ما في بطنها في الظلام قبل أن تصبح الفضيحة على الملأ، امرأة حكمها الهوى فاتبعت إغواءه، لم ترضخ لاستبداد أبيها وجبروته حين رفض تزويجها بمن اختارهُ قلبها.. لماذا؟! لعدم تكافؤ الأنساب، غلطتها أنها سافرت معه لتحيا لحظات دافئة في أحضانهِ، أشبعت ما في قلبها من حب، وأشبعت غريزتها بشهوة أنثى، وأشبعتني ألمًا ومرارة لتجرُّعي كأسًا مذاقها مخالفة الدستور والأنظمة الدنيويَّة، حين وطئا الفِراش دون شهود يضعون توقيعاتهم على وثيقة رسميَّة. وفي تلك اللحظة أجهضت مستقبلها، وتلقَّت بذرتي المعذبة، لتحكم عليَّ بحياة العار والإذلال، ووصمة أبديَّة اسمها «بنت الحرام»!

توقَّفت «ديجة» وعادت إلى الوراء مستذكرةً يوم أتت إليها «يارا»، لتخبرها والفرح يهدج نبرات صوتها قائلة:

- أمي، أمي.. أنتِ لم تكوني يومًا لقيطة، لقد أخبرتني جدتي «وهيبة» بالحقيقة، اعترفت لي بأن أباكِ تزوَّج بأمك بورقة عرفيَّة لم توثَّق، وقع عليها خالكِ شاهدًا، لكن عندما

اكتشف جدكِ الأمر فإن أباكِ خاف وأنكر وهرب، وأمك على تواصل دائم مع جدتي.. أمي، الحمد الله، ظني وظنك في محله، أنتِ لم تكوني يومًا غلطة، أو مجرد نزوة غير شرعيَّة!

استرجعت حينها الأعوام الثلاثين من عمرها التي قضتها وهي موصومة بأنها ابنة حرام، ومجرد لقيطة لا حقوق لها وليست كباقي البشر.. عليها أن تسكت وتتقبَّل الإهانة لأنها ليست من البشر المطهَّرين، نعم تعرف أنه ليس ذنبها، لكن المجتمع الشرقي لا يرحم ولا يعطف، ويجني على الأبرياء متناسيا قول الله تعالى: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ»، لكن أين كان قلبك يا «وهيبة» وأنت ترينني أعتصرُ ألمًا وأقضي ليلي باكيةً منتحبة، ونهاري أتوارى خجلًا من كوني ابنة ملجأ؟! ألم يحن فؤادك يومًا ويرق لتخبريني الحقيقة، لكي أخطو خطواتي بشموخ وكبرياء، مثل باقي الفتيات اللاتي في مثل عمري؟!

كانت تلك أهم وأشد لحظات في حياة «ديجة» قسوة.. وقتها بدأت البحث والتحري، ووجدت بين الأوراق شهادة الميلاد التي كُتب فيها اسم والدتها الحقيقيَّة، وحين واجهت «وهيبة» بها أخبرتها الأخيرة بالقصة كاملة وقالت:

- يا بنتي، لقد حدَّثتني ابنة عمي «رجاء»، وهي كما تعلمين تعمل اختصاصيَّة اجتماعيَّة في المستشفى، ترعى شؤون حديثي الولادة من مجهولي النسب.. وفي تلك الحقبة من الزمن، لم يكُن في الدار مكانٌ للأطفال حديثي الولادة، فكانوا يُحجزون في حضَّانة مستشفى النساء والولادة لرعايتهم، حتى يصلوا إلى سن معينة ومن ثَمَّ يُنقلون إلى الدار، وبالصدفة تنبهت «رجاء» إلى لون بشرتك المغاير لباقي اللقطاء، فبحثت في ملفك الشخصي حتى وجدت رقم والدتك وتحدثت معها فطلبت إخفاء حقيقة أنكِ لا تزالين على قيد الحياة، بعدما زعمت أنكِ قد متِّ في أثناء الولادة، خوفًا عليكِ من أن يذبحك جدكِ، وطلبت منها أن تجد أحدًا يتبناكِ، وعرضت مبلغًا ماليًّا كبيرًا لمن

سيفعل ذلك.. حينها، حاولت «رجاء» تبنيكِ بنفسها، لكن زوجها رفض الأمر تمامًا، جملةً وتفصيلًا، فأخبرتني بقصتك، وإمكانيَّة أن أتبنَّاكِ أنا بشرط أن أقابل أمَّك الحقيقيَّة، وبالفعل قابلتها وحمَّلتني حينها أمانة أن أرعاكِ جيدًا، لكن مَن أبوكِ؟ أنا لا أعلم، لم تخبرني أمك عنه حين روت لي قصتها، وقصة زواجها العرفي السري الذي أدَّى إلى سجنها وعذابها وحِرمانها منكِ!

حاولت «ديجة» أن تغفر لـ«وهيبة» لها إخفاء الحقيقة عنها كل تلك الأعوام، بيد أنها لم تستطِع، لكنها ظلَّت ترعاها؛ فما زالت هي أمها التي ربتها.

كانت تمر بفترة حيرة كاملة وتشتُّت، ولا تفتأ تناقش نفسها وتحاسبها وتراجعها، وتدور الخواطر المرجفة في رأسها، شرعت تردد:

- ما الفائدة الآن من معرفة تلك الحقيقة؟ أين تلك المرأة التي أنجبتني؟ وأين ذلك الزاني الذي أشبع رغبته،

ومن ثَمَّ لا أثر له ولا وجود؟ أُيعقل ألَّا يبحثا عن ثمرة حبهما وإن كان غلطة هما سببها وهما الجانيان؟ أيُعقل أن يتنفسا الهواء ويستمرا في الحياة دون أن يتذكرا أن هناك جسدًا ميتًا يتنفَّس ويعيش كأنَّه إنسان حي؟! مضى من عمري قرابة أربعين عامًا، قضيتها أدفع فاتورة ليلة قضياها عاشقين في الظلام، لا أعلم إن كان ما جمعهما حبًّا حقيقيًّا، أم مجرد نزوة عابرة، لم تنتهِ بنهاية لحظاتهما معًا، بل عاشت لكي تعاني وتتعذب!

جرحني «أحمد» عندما خذلني وتخلَّى عني، وأمات في نظري كل رجال الكون، بعدما تذوَّقت على يديه طعم الحب ورعشة القلب، لِماذا؟ لأنني فتاة لا أصل ولا عائلة لها، وقسا عليَّ «نواف» حينما تزوَّجني استغلالًا لعاهة حياتي المستديمة؛ لأنني فتاة ملجأ، لن يسأل عني أحد، أو يأبه لعذابي أحد، وليس لأنني إنسان لديها قلب ومشاعر، وأحلام تريد أن تحققها، فاستباح لنفسهِ ضربي وذلي وإهانتي؛ لأنه ليس لي مَن يساندني ويردعه عن إيذائي، على

الرغم من أنه اختارني بمحض إرادته، أرادني زوجة وأمًا لأبناء، لا أعلم ماذا سيكون موقفهم مني غدًا عندما يعرف العالم حقيقتي المشينة!

هل سيتحمَّلون مواجهة ظلم الناس وأحكامهم الظالمة عليَّ، ورميي بخطيئة هي في الأصل وزر وذنب ارتكبه غيري، أم أنهم سيخجلون مني وينكرونني مثلما أنكرَتْني مَن أنجبتني؟

«وهيبة» كانت الستر الذي أظلَّني، لكنها طالما قست عليَّ، بدايةً من تزويجي بـ«نواف»، لتعاقبني على غلطتي، ثم تخلَّت عني وتركتني بين جدران دار الرعاية الموحشة البائسة، ونهايةً عندما حكمت عليَّ بأن أعيش هذا الإحساس، وأعاني تلك الحيرة التي كادت تؤدي بي إلى الضياع، وبخاصَّةٍ حين تركتني نهبًا لاختيارات سيئة وقاتلة، وحين ضيَّعَت نصف عمري وأنا عمياء عن حقيقتي، وتركتني أعاني ذلًّا وعارًا لا يد لي فيهما، وبسبب إخفائها الحقيقة عنِّي تجرعت المذلة كل ليلة أقضيها، ودموعي

تغرق وسادتي. تناديني «ابنتي»، لكن لا إرث لي منها بعد موتها، فيكفيني معروفًا عندما أحسنت تربيتي، وأنفقت على مطعمي وملبسي وتعليمي. ويكفيني شرفًا أنني حملت اسمها حين تقدَّم مَن أراد خِطبتي، وعرَّفتني إليه على أني ابنتها.

تضحك «ديجة» بسخرية وهي تتذكَّر تلك الساعات البائسة، وتقول بصوت متهدج:

- يا فرحتي بذلك الشرف الذي يموت عند باب المحكمة، وقت عقد خطبتي، والذي نالني بصيِّب من العار، ورأيت نفسي وكأني عارية حين تقدم كثيرون للزواج بي، ورأيت الصدمة في عيونهم عندما يعلمون حقيقتي.. نعم، أصبحت ملامح وجهي جامدة، خصوصًا عندما بلغت الثلاثين من العمر، وبدوت وكأني صلبة لا يؤثر فيَّ شيء، لكن قلبي كان ينزف دمًا وألمًا، حين يرفضني مَن أحببته ولا يلقي بالًا لكبريائي وعزة نفسي.

نعم، لقد بلغتُ من عمري الآن واحدًا وأربعين خريفا، لكنَّ شيئًا ما في داخلي ما زال يراقب ويترصَّد عيون الناس الذين هم خارج مجتمعي الصغير، أخشى أن يعرفوا قصتي، وساعتها فلا أعلم كيف سيتعاملون معي.. هل سأستمر تلك الصديقة المحبوبة التي سيفتخرون بصحبتها، أم تلك الزميلة التي عرفوها على أنها ابنة «وهيبة» فبجَّلوا شأنها، أم سأرى نظرات الشفقة التي تؤجِّج من غيظي وتذبحني بسكين باردة؟ حقًّا لا أعلم إن كنتُ سأرى في أعينهم نظرات الاحتقار، وتتسمَّع أُذناي همسات المهانة والاستهانة، إنهم كُثر لا أقوى على ردعهم وإسكاتهم، لقد وُلدتُ في حالة بائسة واهنة، لكن خلاياي تأبى الاعتراف والإقرار بذلك، استمددتُ قوتي من التحمُّل والصبر، وأنا مجرد فتاة كان طموحها أن يعلو شأنها، وأن تصبح طبيبة لتبرهن لنفسها، وللعالم المتربِّص بها، أنه حتى فتاة الملجأ تستطيع كسر القيود وهدم الأسوار، غير مباليةٍ بتخلُّف مجتمع لا يرحم أنثى بِلا عضد، ولا مطلقة بِلا مال، ولا

أرملة بِلا أبناء ولا سند.. لكن لم يحالفني الحظ، ولم تشأ الأقدار أن تحقق لي رجائي.. لا أريد معرفة سبب خيبة آمالي، قد يكون شرًّا لا يروق لي الاطلاع عليه، لم أعُد أتطلَّع إلى شيء في تلك الحياة التي أعلم أنني جئت رغمًا عنها وأنها لا تريدني، حاولت كثيرًا أن أنتصر عليها، غير أني لم أستطِع، ولم أجد من يكون عونًا ونصيرًا لي ليؤازرني.

الحياة خُلقت للأقوياء وليس للضعفاء، فمن أنا بالنسبة إليهم، سواءٌ أكنتُ من دمٍ طاهر، أم من دم لوَّثه شيطان حين أغوى قلب بشر بفعل الخطيئة وانتهاك الحرمات؟!

راق لي أن أكون إنسانًا، لكن أرهقني السؤال: مَن أنا بين الناس؟!

حقيقةُ أنني لستُ ابنة حرام لا يعلمها أحد، وشائعة أنني لقيطة لم تعُد تؤلمني!

صمتت «ديجة» بعد حوار طويل وممتد مع نفسها ليرتاح عقلها، ولتستجمع نبضات قلبها الممزق، بدأ شروق شمس يوم جديد، ومعه يولد أمل جديد، لكن ليس لأمثالها، بل لمن حالفهم الحظ من صفوة البشر.

وقفت على الصخور تراقب البحر الهائج، لم تكُن تفكِّر في الانتحار، لكن شيئًا بداخلها تمنَّى لو هلكت نفسها، لترتاح من عذاب الاختيار المرير، ومجيء غدٍ لا تعلم إلى أي قاع سحيق سيلقي بها.

تحيَّرت وتخبَّطت أفكارها: أتعترف بالحقيقة، وتنشر قصتها على الملأ في رواية، لعلَّها تنجي نفسها وكثيرات غيرها من الفتيات اللاتي لا ذنب لهن سوى أنهن وُجدن في عالم كل مَن فيه قاضٍ يحكم على غيره من البشر ويدينه، أم تلوذ بالصمت طوعًا وتدع الكلمة الأخيرة لمشيئة القدر؟ هي لا تخشى الموت، ولا تبالي بنظرات الاحتقار، لكن ترعبها فكرة تخلِّي ابنيها عنها في يومٍ ما مقدرٍ سلفًا، تلك الضربة التي لن تقوى على تحمُّلها؛ فهُما نبض قلبها، وهما

أنفاسها التي تبقيها على قيد الحياة، وهما من ترى فيهما حُلمها وحياتها الآتية.

عادت أدراجها أخيرًا، بعد أن قمعت أي فكرة قد تدفعها إلى إنهاء حياتها التي لم تعشها بسعادة مطلقة حتى الآن، وقد قررت أن تبحث عمَّن تسبَّب في أذيتها وتسويد حياتها كلها: والديها الحقيقين اللذين أشبعا رغبتهما، ومن ثَمَّ رمياها وتخليا عنها. جعلت ذلك هدف حياتها المقبلة التي لا تعلم أَخيرٌ ينتظرها فيها، أم تحمل لها في طياتها سوادًا وعلقمًا، يكدران ما تبقَّى لها من عمر، لكن لا ضرر قد يصيبها أكثر ممَّا لحق بها، من قبل حتى أن تبدأ طفولتها.

كانت تعلم أن «وهيبة» لن تُطلعها على هويتهما أنانيةً مِنها، وخوفًا من فقدانها إياها تمامًا، بيد أنها تحس أن مسؤولة الدار تعلم هُوية والديها أيضًا، لكنها تأبى أن تخبرها عن أسمائهما ومكان وجودهما، لا تعلم ما سبب الإصرار على إخفاء حقيقتهما، وعلى الرغم من أنها دفعت أموالًا كثيرة لتحصل على إجابة، لكن للأسف كل محاولاتها باءت

بالفشل، لكن في هذه المرة فهي لن تتقاعس أو تتهاون في إيجادهما.. لكن لماذا تراها تريد معرفة حقيقة أبويها؟!

ماذا تريدين يا «ديجة»؟ لماذا ذلك الإصرار والعناد؟ ما الذي ستجنينه من تلك المعرفة المؤلمة؟ لماذا لا تمضين في حياتك قُدُمًا وتنسين أمرهما مثلما نسيا أمرك وأنكراكِ؟!

هل حقًّا تريدين العتاب، وفَهم الأسباب التي دفعتهما إلى التخلِّي عنكِ، أم تريدين رؤية مَن تركَكِ وألقاكِ عاريةً من كل سند أو ستر، بِلا سقف أو باب تحتمين به، أم أن هُناك حنينًا خفيًّا وشوقًا إلى أحضان مَن أنجبتكِ لا يحس به سواكِ، أم تراكِ تريدين تصفية الحساب والانتقام العبثي الذي قد يدمِّر حياتك الآتية، أكثر ممَّا يعيد بناء عمر قد خلفتِه وراءكِ، ولا سبيل ولا وسيلة إلى استرداده، أو إصلاح جملة الأخطاء والخطايا التي وقعت فيها، دون ذنب أو قصد؟!

*****

قنوات التواصل

w.b2030

wailbardi

wail_bin_abdulaziz

wail_bin_abdulaziz@yahoo.com

wail abdulaziz

http://wailabdulaziz.com